إفك الأسياد

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

- **الكتاب: إفك الأسياد**
- **المؤلف: عمر غبرا**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1441 هـ - 2020 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**
- **رقم الإيداع: 20826 / 2021**
- **الترقيم الدولي ISBN: 978 – 977 – 6845 – 46 -6**
- **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl043520**
- **الغلاف: ببلومانيا**
- **تدقيق: ببلومانيا**
- **التنسيق الداخلي والإخراج: ببلومانيا**
- مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002026337855 - 002026064518
- محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

جميع الحقوق محفوظة ©

إفك الأسياد

رواية

عمر غبرا

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS
www.bibliomaniapublishing.com

2021

جميع الحقوق محفوظة ©

إهداء

لِمن رَفض الزيف وآمن بقدرته على بلوغ الحقيقة أهدي هذا...

***

1- إن كان الخوف يرغم الإنسان على الصمت والخضوع، فإن الحب يحمله على الثورة والتمرد.

خيّمَ وقار الموت على القرية؛ عندما بلغها نبأ موت الحكيم المعزول، فتجمع سكانها في الساحة الكبرى ينتظرون وصول جثمانه برفقة رهطٍ من الشباب هرعوا إلى أعلى الجبل بعد أن جاءهم أحد الرعاة بخبر موته، وكيف وجده يفترش الصخر على باب المغارة التي اتخذها منزلًا في عزلته، وبينما هم منتظرون بعضهم ينشج بصمت والبعض الآخر تملؤه الغبطة، ولم يحملهم على الركون تحت شمس الصيف الحارقة سوى تلهُّفِهم لرؤية العدالة الإلهية وقد تحققت، جلس "جورج" الجزار مستظلًا بنافورة المياه المستديرة التي تتوسط الساحة موليًا وجهه إلى دُكانه، يحملق بالدماء المتقاطرة من جسد عجلٍ قطع رأسه ليكون جاهزًا لوليمة الدفن، و"جورج" هذا رجلٌ هزيل الجسد، تساقط شعره الذي كان أحمر اللون مثل جميع أبناء الجبل ولم يبق سوى بضع شعرات تغطي جلد رأسه، سمع شابًا يتوسط أربعة آخرين يقول ضاحكًا: إن الحكيم تلقى طعنةً بقلبه من قِبل أحد اللصوص أودت به قتيلًا، على العموم هذه الميتة تبقى أقل من الجزاء الذي يستحقه، وهبّ آخر يقول: وكان عجوزًا أمردَ احدودب ظهره: لا، بلغني أن ذئبًا نهش رقبته بعد عراك طويل دار بينهما، وأضافَ آخر: لماذا يأتون به إلى القرية؟ فليدفنوه في المغارة أو يتركوه للطير يأكل لحمه، رجلٌ مثله لا ينبغي أن تقام له مراسم دفن؛ ولا أن يمس جسده مدافن الحكماء، إن في ذلك تكريمًا له، وصاح بعض الجمع مؤيدين له: نعم يجب ألا يدفن، ولم يكد يُكمل

قوله حتى صدح الجزار قائلًا بصوتٍ كهزيم الرعد: ألا تكفوا عن ذاك قليلًا... ألا تكتفوا من الكلام، أليس للصمت إليكم سبيلٌ يا معشر البشر!!؟ ولمْ يَكد يُنهي كلامه حتى ران صمتٌ على الساحة، فلا يكاد يسمع بها سوى زقزقة عصافيرٍ بمحاذاة البركة ترتشف من مياهها، وحفيف أوراق شجرة الصفصاف بجانبها، وسكن الجميع يحملقون به وقد فقد أعصابه وبينما هو يصرخ ويزبد نادى أحدهم: ها قد وصلوا، انظروا أعلى الطريق، إنهم فرسان القرية برفقة "يعقوب" والآخرون أتوا بالحكيم المعزول.

كانت هالة يرتعش القلب لها تحيط بالشبان السائرين، وبمقدمتهم "يعقوب" يتطاير ما حُررَ من جديلة شعره الأحمر على وجنتيه، و"يعقوب" هذا شاب فطن، حسن الوجه بل شديد الجمال يطغى احمرار شعره على بياض وجه فيجعله كوردةٍ حمراء بللها الندى في صباحٍ صيفي، وكونه أحد العاملين عند الحكيم الأكبر "أوندال" كحارس ليلي لحقله، أرسله الحكيم الأكبر ليتبين أمر موت الحكيم المعزول والإتيان به إلى القرية، حط الجمع رحاله في منتصفِ الساحَة، وحاول الفرسان إبعاد الناس الذين تزاحموا لرؤية الحكيم المُسجى فوق لوح خشبي، ونجحوا بتهذيبهم بعد أن نال أحد الحضور ضربة بمقبض السيف على مؤخرة رأسه جعلته يتكور على نفسه من شدة الألم، ولم يمض الكثير من الوقت حتى وصل الحكيم الأكبر برفقة أعيان القرية والحكماء السبعة، وهو رجلٌ طويل القامة أملس الوجه ينسدلُ شعره الأحمر على كتفيه ويتناثر القليل من النمش حول أنفه، يرتدي ثوبًا أسود ينسدلُ حتى قدميه ويلتف منه حول رقبته قطعة قماش طرزْ

عليها أسماء الحكماء من قبله، وإذ إنه لباس القادة الحكماء الذين توالوا على تسيير أمور قرى الجبل والبت في شؤونها، فإن للثوب وحده قوة تأثير على أبناءِ القريةِ.

ضرب بعصاه على الأرض وهو يمشي ليقف فوق رأس الميت؛ فصاخ الجميع بأسماعهم وطغى الهدوء على الحدث، وقال بصوت جهور يزخرفه اللين قليلًا: أيا سكان قريتي الطيبين، أيا أيها الجمع الكريم! إن هذا الإنسان المُسجى أمامكم قد انتهت مهمته في هذه الحياة ورحل منها دون عودة، فلا خيره يُرجى ولا شره يُخشى، وقد بلغني أن بعضكم اعترض على دفنه في مدافن الحكماء وله كُل الحق في أن يعترض على ذلك وهو عين الصواب، إذ إن ما ارتكبه من خطايا يجعله أهلًا بأن يُرمى في أعلى الجبل لتأكلَ منه الطير، لكن أتقبلون أن يقال إننا أناسٌ ما أوفينا علماءنا حق قدرهم...!؟

إن هذا الرجل أنقذ بعلمه أرواحًا، وحفظ بدينه بيوتًا، ونال بذلك مجدًا وسطوةً فيما مضى، سعى للإتيان بفرسان القريةِ وحفظ الأمن بهم حتى أصبح الرجل منكم ينام وباب بيته مفتوحًا فلا يخشى على ماله وروحه شيئًا.

بذل جهده في طلب العلم والحكمةِ منذ طفولته وشاخ على ذلك، فنال العلوم وبذلها لغيره دون فتورٍ أو ملل، ولكن زلت قدمه وشاء الرب أن أكون شاهدًا على خطيئته قبل أن يخفيها، فعزلناه من المجلس الموقر بما كسبت يمينه، وأخذتنا به الرأفةِ والرحمةِ فأمرنا بأن ينفى بعيدًا عنا، ومن منا حصينٌ من الزلةِ، ويملك تحصين نفسه من الخطيئةِ...!؟

أخذ الحكيم شهيقًا واستأنف قوله وهو ينفث زفيره: هذه

الحياة قد تنال بها رُفعةً حتى تظن أن لا علو لأحد عليك بعدها، فتمسي وأنت مع السافلين، أيها القوم دعونا نوقره ونتجاوز عن خطيئته وللمرة الأخيرة، جزاءً لما قدمه من إحسان لهذه القرية الغالية علينا جميعًا في أيامه الغابرة، أدخلوه إلى المعبد لنقم بمراسم الدفن.

انصاع الجمع لما قيل ورضخ له، وعلى الفور هم الشبان بنقل الجثمان إلى المعبد الذي يتصدر ساحة القرية، وتزاحم الرجال والنسوة بالسير خلف أعيان القرية وحكمائها حتى دخلوا المعبد، وهو معبدٌ قديم قِدمَ الدهر، نقشت على جدرانه ألسنة اللهب، ووضعت الشمعدانات الذهبية على جانبي البهو الواسع، وأوقِدت نار المشاعل فأينما وليت وجهك ترى به ألسنة النار تسعى، أخذ الحكيم الأكبر مقصًا ووعاءً مِن العاج المُذهب، فقص من شعره خصلة وتابع مروره بالحكماء السبعة الذين اتخذ كلٌ منهم المقص وشارك بخصلةٍ من شعره ووضعها في الصولجان، وقام "يعقوب" بتحسين هيئة الجثة التي وضعت في صندوق الدفن ونظرات الحسد من طلبة المعبد تنهشُ لحمه للحظوةِ التي نالها عندَ كبير الحكماء، دنا الحكيم من الجثة وراحَ يباركها بالدخان المُنبعث من خصل الشعر المشتعلة، فاقترب "يعقوب" منه وقد شحب وجهه وقال بصوت حذر: سيدي أترى ما أرى؟ ها هنا أثر يدين تنقضان على رقبته، وازرقاق وجهه،! قتل أجزم بذلك، لم يمت ميتةً طبيعية، سمع بعض الحكماء ما قيل فأخذوا ينظرون لبعضهم البعض وقد اعترتهم الدهشة، أما الجمع فقد كان بعيدًا لدرجة أنهم لم يسمعوا ما تفوه به "يعقوب"، عض الكاهن على شفته وعقد حاجبيه وهو يُحسن من ثوب الميت سريعًا، وخلال دقائق تمتم

الآيات التي اعتاد قولها في مثل هذه المراسم وطلب من الآلهة أن تدفئه بنارها وتبعده عن جحيمها، وتفرق الجمع بعد أن تم الدفن مطمئنين بأن لديهم قصة يستأنسون بها في ليلتهم هذه.

غربت الشمس، وانطلقت نسمات الليل الباردة تجول في القرية وبهذه الأثناء شق حقلَ الحكيم "أوندال" فرسٌ أبيض، يعدو باتجاه المنزل الذي يتوسطه، وبينما الفرس أطلق أرجله لبلوغ المنزل البعيد، واجتياز الحقل الكبير، سارع "يعقوب" لاعتراضه إذ كان قريبًا من منتصف الطريق يتفقد الحقل وبيده فانوس ينير به طريقه، شُد لجامُ الفرس من قِبل فارسه وترنحت عنه فتاة كشفت عن وجهها عندما رأت "يعقوب" ينتصف الطريق، وبادرته بالقول وهي تهم لعناقه عناق المفارق بعد عودته: لمَ يخفي الظلام نور وجهك يا "يعقوب"!!

قال "يعقوب" وهو يشد على يديها: كنت أنتظرُ مجيئك.

- ها قد أتيت... لكني وصلت متأخرة، أين ذلك القذر... أهو في الداخِل؟

- أتقصدين الحكيم؟

- وهل تحيد القذارة عن أصحابها؟ بلى أقصدُ الحكيم، لقد بلغني برسالته أن والدي قد توفي وأن مراسم الدفن تمت على الفور، ألم يستطع أن ينتظر قدومي؟! لقد آثر والدي العزلة بسبب الترهات التي لفقت له وحرمنا من صُحبته في الدنيا أنا وأمي بسبب ذاك القذر، وماتت أمي كمدًا وحزنا على ما حل بنا، وها هو ذلك الغبي الأحمق يكرر حماقته مرةً أخرى، ويدفنه قبل رؤيتي إياه.

كانت "أراس" الابنة الوحيدة للحكيم المعزول، وقد طردت وأمها من القرية بعد قرار عزل أبيها ونفيه وعائلته خارج

القرية، فصحبتها أمها للعيش في قرية أخرى؛ بعد أن رفض أبوها أن ينضما إليه في الكهف، وهي فتاة في العشرين من عمرها لها هيئة فارسٍ وصلابة مُقاتل ولين فتاة بالسابعة وجمال ظبيٍ ورقة زهرة، ضمت شعرها الأحمر بجديلة تصل لأسفل ظهرها فبدت كفرسٍ جميل عنيد لا يقوى أحد على أن يُمسك لجامه.

مَسحت دمعة انهمرت من عينها عندما قاطعها "يعقوب" قائلًا: سينتقم الرب له، لا أشك بذلك أبدًا، وأنتِ أيضًا ثقي بأن الإله لن ينسى أباك ولن يَغفرَ لِمنْ أذاه.

- لن يمضي الأمر قبل أن يُبرأ أبي مما نسبَ له.

- دعكِ من هذا الآن وهدئي من نفسك، لن تنالي شيئًا من لقاء الحكيم، خُذي برأيي وعودي أدراجك الليلة.

قال "يعقوب" مُحدثًا نفسه عندما جلست "أراس" على قارعة الطريق، مريحةً رأسها على ركبتيها، مخفيةً بذلك وجهها محاولةً أن تداري صوت نشيجها: ماذا لو أخبرتها أنه قتل ولم يَمُت بأجله، أتراها تجن!؟ أي ظلمٍ هذا الذي أحاط بها، وأي عناءٍ ترفض حمله الجبال، قد حط رحاله على منكبيها؟ يَفنى المحبوب ولا يفنى حبه في صدر المُحِب، كَيف إذًا إن كان المحبوب أبًا ورفيقا!!

دنا منها حتى إذا لامست يده رأسها همسَ يقول: إن كان لقياكِ للحكيم سيجلب لنَفسك السكون؛ هَلمي نلقاه سويًا، ستدخلين أنتِ بعد أن أبلغه بقدومك، لم أره اليوم من بعد مراسم الدفن أبدًا ولم يُفارق المنزل على غير عادته، إلا أنني رأيت قائِد الحرس قد أتاه ولم ألحظ خروجه من المنزل أبدًا.

واصلا السير باتجاه المنزل وكلاهما ممسكٌ بلجام الفرس الذي كان بينهما، ولم يتفوه أي منهما ببنت شفة، إلا عندما رأيا رجلين خرجا من المنزل وبدآ يمشيان الهوينة كلٌ على فرسه.

قالت "أراس": ها قد خَرج قائدُ الحرس.

نظر "يعقوب" وقد ضاقت جفناه وتوسعت حدقتاه وهو يقول: إنهما الحكيمان الطيب إبراهيم وأظن أن الآخر هو صادق، نعم إنه الحكيم صادق، لم ألحظ قدومهما!

- أوه مساء الخير "يعقوب" من الجيد أنني رأيتك هنا يا بُني، هكذا قال الطيب إبراهيم وهو رجُل بدين ومعتدل الطول، رأسه المستدير خلا من الشعر لكنه لم يخلو من الحكمة والدهاء أيضًا إن لزم الأمر، وصادق الذي كان برفقته هو شبيهه بالشكل والدهاء إلا أن صادق كان فظ الطباع على العكس تمامًا من نظيره.

- ليلة سعيدة يا سيدي، هل لك أمرٌ أنجزه لك، لكن قبل ذلك أظن أنه يجب أن تعرفا السيدة التي في حضرتكم هي "أراس" ابنة الحكيم.

نظر كلاهما إلى بعضهما وقد زاد القلق الذي كان باديًا في وجهيهما لحظة الوصول.

- العزاء لك يا "أراس"، لقد تغيرت ملامحك كثيرًا، أذكرُ أيامًا خلت كُنت تجولين بها في هذا الحقل، ما أسرع أفول الأيام! أسأل الآلهة أن تغفر لأبيكِ، نحن على عجلةٍ الآن ويجب أن لا تقِفا هنا كثيرًا، "يعقوب" خذ كيس النقود هذا وارحل عن القرية فورًا، اذهب إلى أي مكان لا يعرفك به أحد إلى أي مكان يا بني، المهم أن تغادر القرية الليلة وفورًا.

قال صادق بخبث: اسمع لما يقول الطيب يا بني واخرج على الفور واجعل إن شئت بيننا رسولًا تثِق به، إلى أن نجد مخرجًا لذلك الأمر ونعلم خبايا مقتل الحكيم.

ثم تابع: وأنتِ يا "أراس" اصمتي عن الأمر الآن وكأنك لم تسمعيه.

- أي أمر هذا، أبي مات قتلًا، من الذي قتلَ أبي، من غدَر بالحكيم؟

هاجت الفتاة كَذئبٍ في معركةِ البقاء وطأطأ "يعقوب" رأسه وهو يقول بصوتٍ ملأه الأسى: أي عاقل كان قد نظر إليه عن قرب يدرك أنه ماتَ قتلًا، كنت سأخبرك بهذا حتمًا لكنني لم أقوَ على البوح خشيةً عليك من توابع الأمر.

- أي توابع أيها الأحمق؟

لمَ لمْ تخبر الناس! لِمَ لمْ تحركوا ساكنًا أيها الحكماء؟

- إن كبير الحكماء أراد ذلك، وهل يكون التابع ندًا لسيده، صدقيني لم تكُن باليد حيلة، وما إن تم الدفن حتى اتجه الحكيم نحوي وكأن غضب العالم بأسره وهلع المُقدمين على الموت قد حط بوجهه وقال: لن أسمع ما قلته مرةً آخرة من فمكَ المشؤوم هذا، سأنساه أنا وتنساه أنت بدورك أيضا، نعم إن الحكيم قد قتل وستلحق به أيضًا إن خلوت بنفسك وحدثتها بذلك، أتفهم ما أقول ثم أدبر ورحل.

قال صادق بحدة: صدقاني ليس هنالك وقت للحديث الآن اخرجا من هنا بسرعة، أنت يا "يعقوب" يجب أن تخرج، أما "أراس" فلا أحد يجب أن يعلم بأنها على درايةٍ وبينة بحقيقة الأمر وليس عليها خطر إذ إن "أوندال" أرسل إليها لتأتي، وهو يعلم أنها لن تصل قبل ظهيرة الغد خشيةً من الليل فأي أحمقٍ

يسافر ليلا!؟ وقد اتفق ورئيس الحرس على قتلك يا "يعقوب" قبل الصباح.

هوت تلك الكلمات على مسمع "يعقوب" كالمقصلة تهوي على رقبة المحكوم، فشحبَ وجهه وارتعدت قدماه وهجر الريق حلقه، فقال بصوتٍ أشبه بصوتِ المنكر الساخر: قتلي أنا! لِمَ؟

- إن رؤيتكَ لآثار القتل على الحكيم تخيف الرجل ويخشى إن أنت تحدثت فيما رأيت أن تثير حوله الشبهات، لا نعلم خبايا الأمر كُله، فهذا ما أتوقعه، سنتحدث في كل شيءٍ لاحقًا، وأنت يا "أراس" اذهبي معه الآن، واحذرا أن يراكما أحد سويًا، ائويا إلى كهف أبيك الآن وابتعدا عن العيون، أطلقت "أراس" العنان لفرسها وخلال لحظات اختفيا من الطريق، ولم يبقَ من أثرهما سوى القليل من الغبار الذي أخلفه الفرس من خلفه.

والذي جرى قبل اعتراض الحكيمين لـ"أراس" و"يعقوب" هو أن كبير الحكماء "أوندال" ما برحَ حجرته مُذ عاد من مراسم الدفن، إلا أنه كان بين فترةٍ وأخرى يقوم من على كُرسيه الذي ترأس الطاولة ويقطع الحجرة طولًا وعرضا، شارد اللب مشتت الفكر، ومضت سويعات قليلة وهو على حالته هذه قبل أن يُرسل في طلب رئيس الحرس، وما إن وصل رئيس الحرس "سفيان" وقد رافقته خادمة الحكيم إلى غرفة الاستقبال الذي استقر بها الحكيم، ونادرًا ما كان يُجري اجتماعاته بها، إذ إنه كان يقضي جُل وقته في مبنى الحكماء أو في المعبد، وكلاهما متجاوران لا يجد المتنقل بينهما أي عناء بتنقله هذا، وهي غرفة طويلة بعض الشيء، يغطي حائطها الأيسر مئات الكتب والمخطوطات التي لا تعادل عُشر الكتب الموجودة في

مبنى الحكماء، أما الطرف الأيمن فقد كان من نصيبه أن تعلق عليه الأيقونات، وتوسط الغرفة طاولة مستطيلة في منتصفها شمعدان صغير تتراقص نيرانه أحيانًا وتنطفئ في أخرى.

أشار الحكيم بيده فانصرفت الخادمة بهدوء، ثم قال وهو ممسك بتلابيب "سفيان" الذي يفوقه طولًا وضخامة، الحُب وحده القادر على أن يَفضح أمرنا، تراجع "سفيان" خطوة للخلف وهو يحك أنفه المعقوف قليلًا ثم نطقَ سائلًا: ماذا تعني يا سيدي؟

- أعني "يعقوب" الأبله، أصغ إلي جيدًا يا أسدي، قد رأى "يعقوب" أثار القتل على الحكيم، وقد حذرته من أن يثرثر فيما رأى، لكن لا، لا أظن أنه سيظلُ وفيًا للصمت طويلًا، وقد بلغني منه في إحدى المرات أنه و"أراس" ابنة الحكيم يُحب كُل منهما الآخر، حتى وإن كانا لم يعترفا لبعضيهما بشكل صريح وواضح إلا أن هناك حبًا دفينًا في صدريهما، وما توقفت الرسائل بينهما مذ خرجت من القرية، وقد كانت طفلة صغيرة صديقة له تلهو معه في هذا الحقل عندما كان مُلكًا لأبيها.

- يكفي أن نرى بعينيه الخوف حتى تطمئن نفسك، وقبضتي ستتكفل لك بذلك.

- إن كان الخوف يرغم الإنسان على الصمت والخضوع، فإن الحب يحمله على الثورة والتمرد، دعك من التهديد وأنهِ أمره الليلة قبل بلوغ الفجر.

- قتيل يتبعه آخر... !! دعنا من هذا يا سيدي وكُن مطمئنًا، لقد انتهينا من الحكيم عارف وطلبته جميعا، ودُفن كبير الحكماء المعزول، هُم الخطر وحدهم، وها قد رحلوا.

- قلت لك لا، لن أغامر في شرف العائلة من أجل أبله يعمل لدي ويقتات من فتات مائدتي، لن يبقى بعد فنائه شيء يُعيد لنا شبح الماضي وذكراه، دنا "أوندال" من "سفيان"، وأخذ يبين له ما حاكه في رأسه بغية التخلص من "يعقوب"، وبعد دقائق قليلة قضيت بالأخذ والرد بين الحكيم ورئيس الحرس طرق الباب ودخلت عليهما الخادمة، قال "أوندال" بضجر: ماذا هناك؟

- الحكيمان صادق والطيب إبراهيم يستأذنا بالدخول عليك يا سيدي.

- أي طائر شُئمٍ رماهما علينا الليلة، أدخليهما لنرى ما الأمر.

بادر صادق بالقول بعد أن ألقى التحية ورفيقه على الحكيم ورئيس الحرس واتخذا مكانًا على الطاولة التي ترأسها الحكيم "أوندال": قد تعجَب يا سيدي من قدومنا إليك وترَكنا للمعبد ومبنى الحكماء في هذا الوقت الذي يكثرُ به رواد المبنى القادمون من قرى الجبل بغية تقديم النذور، وبذل العطايا للآلهة، لما في هذه الأيام من أهميةٍ لدى الناس فإنه موسم الحصاد، ومن أرضى الآلهة نال خيرًا وصَلَحَ حصاده...!

ولكن قد تهامَس الحكماء فيما بينهم، وتساقط صالح الأفكار وطالحها على رؤوسهم، ودخل الهلع أفئدة بعضهم، وحطت الحيرة على عقولهم، فأخذت بيد الطيب إبراهيم وأتينا إليك كي نسألك؛ فتبين لنا مُبهَمَ الأمر، وتوضح لنا خَفي العمل، فهل الحكيم المعزول مات مقتولا...؟ أمعَنَ "أوندال" النظر في عيني صادق اللتين تحملقان به بودٍ وسكون وسأله بهدوء: من قال لك ذلك؟

- لم يحدثني بذاكَ أحد إلا أن ما رأينا من أثرٍ على رقبة الحكيم؛ أثارَ بنفوسنا الشكوك وقد سَمع بعض الحكماء ومنهم الطيب إبراهيم حارس الحقل "يعقوب" وهو يحدثك بالأمر! ورأى كيف أنك لم تكترث له بل عجلتَ في الدفن، وتحاشيت أن يَقتربَ من الميت أحد، أوليس هذا ما رأيته أيها الطيب؟

هز الطيبُ برأسه واضعًا كلتا يديه على كرشه الصغير، ومواليًا بعينيه صوبَ رئيس الحرس الذي أقحمَ نفسه في الحوار القائم وتصنعَ الانفعال والغَضب وهو يصيح كالديك الغاضب: من يجرؤ على عملٍ كهذا يا سيدي، إن كُنت تعرف من الجاني فدلني عليه؛ آتيك به ونقتص منه ونعلق جسده على شجرة الصفصاف في منتصف الساحة، حتى يكون عبرةً لمن تسول له نفسه التعدي على الغير أو المساس بالقانون، وإن كنت تجهلُ الفاعل دَع الأمر لي، فإني أستطيع أن أجد المجرم حتى وإن لاذ بجحر ضب،

ضرب الطاولة بيده ثم تابع: هي الشعوب إن جئتها باللين تمادت وعثرت، وخرج منها ما يُفسد شأنها ويَخِل بنظامها، وإن لاحقتها كما يلاحق الحداد قطعة الحديد فوق سنديانه استقامَ أمرها.

هز "أوندال" برأسه مُتعبًا وكأنه خرج من عراكٍ طويل مع أفكاره ثم أردف يقول: قد وصلني في الأسابيع المنصرمة رسالةٌ من حكماء الجبل الشرقي يستغيثون بها، ويطلبون العون على وباءٍ أصابهم، وهو وباء جديد من نوعه، لم نألفه أو يصلنا عنه خبر من كُتب الأولين، يزداد المصاب به نحولًا ويرفض جسده دخول الطعام إليه، ومن علاماته الأولى أن يفقد المصاب

لونه الطبيعي ويخلفه زرقةً في الوجه وشحوبًا في الجسد واحمرار بعض أعضائه كأنها صُليت بسيخ من نار، وقد حدثتك بذلك أنت أيها الطيب إبراهيم كي تبحث في الأمر...!!

- صحيح أنك أعلمتني بالأمر، لكن ما علاقة الوباء فيما نتحدث به من أمر الحكيم المعزول؟

أخذ شهيقا كناجٍ من ظلمة الماء ثم تابع: أيها الإخوة إن حدثًا جللًا أخشى أنه سيحل علينا، وإن لم نوله وافر الاهتمام ونبذل في سبيله كثير الجهد والعمل، ستفنى القرية وما حولها، إذ إن أولَ ما تبادرَ إلى خَلدي لحظة رؤيتي للحكيم هو أن جريمة قتلٍ قد وَقعت، لكن الآلهة أرشدتني إلى أنه مات بالوباء الذي قد تحدثنا عنه توًا، لذلِكَ أيها الأخوة سارعوا بالعمل، علنا نجد له دواءً يقينا شره، فما موت الحكيم في عزلته إلا إشارةً من الرب على أن الوباء قد وَصل تخومَ القرية.

جزع الحكيم صادق مما سمع وشحب وجهه، ونطق وشفتاه تعتليهما الرجفة: أحقًا ما تقول؟

وأردف الطيب إبراهيم قائلًا: يجب أن يسعى جميع الحكماء في هذا المرض العضال إن صح ما تقول، حتى الطلبة يجب أن يشاركونا العمل، عدا عن ذلك ينبغي أن نحذر عامة الناس من مخالطة الذي يشكون بمرضه، وإن أي شخص يلحظون به ما يثير الريبة يؤتى به إلى مبنى الحكماء للحجر عليه وعزله عن الناس كي نحد من انتشاره.

قاطعهما الحكيم الأكبر مُلوحًا بيده رافضًا ما قيل، وعلى ثغره ابتسامة المنتصر: لا... لا أظن أن إخبار الناس سيكون أمرًا صائبًا بهذا الوقت، دعوا الأمر سرًا فيما بيننا الآن، على ألا

يخرج من بين الحكماء، فلو علمَ الناس به لعمت الفوضى بينهم، وأكلوا بعضهم بعضًا، ولذلك تعمدت ألا يرى جسد الحكيم أحد، وكتمت خبره حتى أتحقق من صحة ما رأته عيني، وكم أتمنى أن يكون الحكيم قد مات قتيلًا ولا يصحُ ما نتحدث به عن ذلك الوباء، حتى إنني قد أرسلتُ الحكيم عارف منذ أيام إلى الجبل الشرقي؛ ليكون عونًا لحكمائه وأمرته بأن يكتم الأمر عنكم.

استمر النقاش بينهم لبعض الوقت، إلى أن أذن "أوندال" للحكيمين بالمغادرة، بينما بقي "سفيان" في مجلسه، وقد أشار الحكيم في ختام المجلس أن لديه بعض المشكلات الواجب حلها مع رئيس الحرس، وبعد أن فارق الحكيمان المنزل وركب كلٌ منهما على فرسه، فتح الطيب إبراهيم ورقة صغيرة كانت قد وضعتها الخادمة بيده عندما غادر حجرة المجلس، وقد كَتبت تلك الجاسوسة التي تعمل لصالحه أن رئيس الحرس سوف يقتل "يعقوب" قبل فجر الغد، كي ينعَم الحكيم بنومٍ هادئ.

2- عليكَ أن تقتفي أثر العدالة، فإن بدأت باقتفاء أثرها لن تضيع أبدًا.

بَلغا الصاحبان بابَ الكهف، وقد راعهما نور ينبثق من داخله، فأخذا يدنوان منه بحذر، حتى بان لهما رجل أعياه التعب وانتصر عليه النعاس، فراح نائمًا وعلى صدره بعض الأوراق يعانقها بكلتا يديه، والنار بجانبه أخذت تخبو بعدما مَضَغت ما

في مصرانها من حطب، اتخذا مجلسًا أمام النار، وهمس "يعقوب" وهو يتنفس الصعداء، هل عرفتِ هذا الرجل؟

أجابت وعيناها تحملقان بالنائم المُتعب: بلى عرفته، أتذكر بعض ما جمعني به في طفولتي، وأيضا كنت قد التقيت به في بعض زياراتي لوالدي هنا، قال "يعقوب" وهو يضع بعض الخشب فوق النار الهادئة: لا أفهم ما الذي جاء به إلى هنا؟

مسح النائم وجهه بكفه وعدل من وضعيته ثم أردف: رائحة الصديق يا عزيزي ...أهلًا بك يا "أراس".

هز برأسه مُحييًا الفتاة أمامه، وتابع بعد تنهيدة طويلة: ريح الصديق يا "يعقوب"، ريح الصديق بعد موته تبقى مُلاحقة لنا وتجبرنا على اتباعها، وما إن نتبعها حتى تتلاشى وتحل مكانها ذكريات جمعتنا به، فتنفطر القلوب من وقع الألم وتضيق الصدور على فيض الشوق بأعماقها، وما إن يهدأ الفكر قليلًا وينساب العقل مع الحياة راجيا السلوى؛ حتى تعود تلك الريح لتداعب آلامنا، آهٍ ما أكبر جرحنا يا ابنتي، فليغفر الرب له.

قالت "أراس" ولم تستطع أن تمسك دمعها: أتيتَ متبعًا رائحة صديقك إذن!

الحقيقة أنني قد أرسلتُ ولدي أثناء الدفن؛ ليرى ما لدى الحكيم من ممتلكات في الكهف ويأتيني بها، وعندما تفقدت الأشياء التي عاد بها تذكرت أنني في إحدى المرات التي زرته بها دخلتُ عليه الكهف مُلقيا التحية، وكان جالسا هنا في مكاني هذا، وأمامه جذع شجرة عليه أوراق ومحبرة، وبعد أن جَلستُ بجواره وقلبي يرتعد كفتاة في حضرة معشوقها، والحقيقة أنني على قدر حبي لمجالسته ومحادثته كان قدر خشيتي من الحديث أمامه والنظر في عينيه، لا أدري لمَ! لكن

هذا الذي كُنت أشعر به، إن الإنسان حين يُحب يجعل على نفسه سُلطانًا يخشاه، يُعذبه تارةً وأخرى يُنعمه، دون أن يدري المحبوب بذلك، المهم يا عزيزتي بعد أن جَلستُ بجواره وتحدثنا قليلًا سألته عما في الورق، فقال وهو يهذب لحيته البيضاء بيده: إنها الحقيقة يا "جورج"!

لم أفهم ما يعنيه للوهلة الأولى، ولطالما كان يتفوه بكلامٍ لا أدرك معناه، ولكنها كانت حروفًا تخلف لدي شعورًا يَصعب وصفه.

اقترب "يعقوب" من النار، وكذلك فعلت "أراس" مُشكلين بأجسادهم دائرةً صد تمنع دفئ النار من التسلل دون أن يمر بهم ويلامس أطرفهم، تابع "جورج" وهو ينظر إلى "يعقوب" نظراتٍ ملأها الشك والتحدي: سألته على عجل حقيقة ماذا؟ فأجاب وما زالت كلماته في أذني إلى اليوم: إن الحقيقة تذكر الإنسان بخطيئته، وهي كالرجل الضعيف المحطم تتجنب الظهور خشية أذىً قد يُصيبها ولو بنظرة من عين أحدهم، لذلك تراها تختبئ إلى أن يشتد جذعها ويرمم حُطامها، فلا تسألني عنها شيئًا ودعها ترمم حطامها وتخيط جراحها، فعلمتُ حينها أنه يقصد الحقيقة التي تبرئه مما حيك له، وتجنبت الحديث عن قصته القديمة مراعاةً لطلبه عندما عزل، بأن لا يحدثه أحد عن مجريات ما حدث.

فقلتُ له: يا سيدي مر زمن ونحنُ ننتظر أن تأخذ العدالة مجراها، تلك العدالة التي نبأتنا بها، وقد أفلت سنوات وشهور وأيام ولم نلحظ من العدالة أثرًا.

- عندما يحين الوقت عليكَ أنت أن تقتفي أثر العدالة، فإن بدأت باقتفاء أثرها لن تضيع أبدًا.

وكان ذلك آخر الحديث بيننا، وقد علمت أن حقيقة ما حدث تختبئ بتلك الأوراق، ودائمًا ما كُنت أفكر بها، وأن على عاتقي مسؤولية إيجادها، وإذ طلبت من ولدي أن يأتيني بممتلكات الحكيم قبل أن يسبقني إليها أحد، كانت الأوراق هي المبتغى، فتفقدت ممتلكاته على عجل، ولم أجد ضالتي؛ فهَممتُ مُسرعًا أنقب عنها، إلى أن وجدتها بعد أن فقدت أمل العثور عليها، تحت تلك الصخرة، وأشار بيده إلى صخرة في عُمق المغارة، وقد حوت على مذكرات له شَرعت بقراءتها، لكن النعاس طاغية مُستبد، أتاني ولم أستطع رفض حضوره.
سُرت "أراس" بما سَمعت، ولو كان الحزن هو منبت سرورها، ومدت يدها لتأخذ بناصية الورق الذي تكدس فوق بعضة وأخذ أرقامًا بشكل متسلسل وهي تقول: دعني أرى.
أمسك "جورج" بيدها بحنو وهمس لها: سنقرأها سويا دعيها الآن وأخبريني بأمركما...! لمَ أتيتما ليلًا إلى هنا؟

قص "يعقوب" ما حصل لهما إلى "جورج"، الذي بدوره تحولت مشاعر الشك لديه إلى عطفٍ وإشفاقٍ على ذلك الشاب المُطارد، فهاج وماج كالبحر في حضرة العاصفة، وأخذ يروح ويغدو في طول المغارة وعرضها وهو يتمتم بكلماتٍ لا تُفهم، ومضت دقائق والصمت يملأ المغارة إلا من تمتمة "جورج" وتضرقع الخشب المنحرق، إلى أن قطع الصمت وقال: إذًا "أوندال" هو من قتلَ الحكيم المعزول، ولولا ذلك لما تخفى على حقيقة موته، ولما أمرَ بقتل "يعقوب".
- لا يحتاج الأمر إلى الكثير من التفكير، هكذا قالت "أراس" وصمتت لهُنيهة ثم تابعت، منذ أن عُزلَ والدي وكذّبَ ما قيلَ

عن سبب عزله، فصدقناه نحن أحبته وبقينا بجانبه، مع أنه رفض أن يوجه الاتهام لأحد، أو أن يظهر حقيقة الأمر، والحقد يملؤني اتجاه من تولى بعده، حتى إنه حقدٌ يمتد ليشمل جميع أفراد القرية الذين صدقوا ما قيل، "أوندال" من غيره!؟ هو من دبرَ وفعل، وهو من قتلَ واحتمى... احتمى بحرس القرية وقربهم منه، فما من أحد يطالبُ بحقٍ له أخذه منه عنوةً، حتى ترى حراس القرية هبوا لإسكاته وإيداعه السجن.

- هي السلطة يا ابنتي، تثير الوحش الكامن بالنفس وتوقظه، وحشٌ لا يُغلب؛ طالما أن له في الديار أعوانًا يرونه ملاكًا أنزلته الآلهة، حكّ "جورج" رأسه وقد عاد لمكان جلوسه ثم تابع قائلًا: صباح الغد تذهبين إلى الحكيم وتلتقين به دون أن يشعر أنك التقيت بأحد من أهل القرية فتزورين مدفن الحكماء... قاطعه "يعقوب": سيكون ذلك خطرًا عليها، ولن يحيد ذكاء الحكيم عن الحقيقة، فهو يعلم أن صلتي بها وطيدة راسخة.

- لكن عدم ظهورها واختفاءك سيجعله يعلم أن حربًا عليه ستبدأ، وبذلِكَ سيدفع جميع من ينصاعون لأمره للبحث عنك، كما أنه لن يضر بها في وضح النهار وعلى مرأى من الناس.

- وما أدراك ألا يُرسل لها أحداً يُخفيها عن الأعين؛ إلى أن يعثر عليّ ليضمن بذلك عدم لقائي بها؟

صمت الجميع لدقائق ونظرات الأسى تتناقل بين "يعقوب" و"أراس" إلى أن قال "جورج": اتخذوا مكانًا آخر للاختفاء عن الأعين ريثما نعلم إلى ما سيؤول الأمر، في أعلى الجبل مغارةً يختبئ بابها خلف أغصان الأشجار، أخبرني عنها أبوك ذات يوم ونحن نتسلق الجبل، فسألته عن سبب عدم مكوثه بها واختياره

هذا الكهف، فكان رده: (إن الإنسان بطبيعته لا يطيق المكوث بمكانٍ تأبى الشمس دخوله، ولا يدفعه إلى ذلك سوى مُستبد ظالم) وأنتما الآن قد حل بكما الظلم وغاب عنكما نور الحقيقة، فلا بأس إن احتميتما في الظلام قليلًا، وإنها لفرصة مواتية لتقرئي بها المذكرات علَّ الخلاص يكون بها، خلاص "يعقوب" وثأرَ أبيكِ، أما أنا سأوافيكما بأخبار القرية وأتصيد لكما أخبار كبير الحكماء وأعوانه، قاطعه "يعقوب": وتحدث إلى الطيب إبراهيم وصادق، ستجد عندهما ما يفيد، ولا تأمن لغيرهما من الحكماء، عقد الجزارُ حاجبيه وقال مستنكرًا: وهل يعلم الطيب إبراهيم عن مكان تواجدكما الآن؟

- نعم يعلم، فقد أشار إلينا الحكيم صادق أن نأتي إلى هنا... وكان الطيب إبراهيم بجانبه آنذاك.

- يُروى في القرية أنه نال لقب الطيب لأنه كان يبحثُ عن اليتامى في القرى فيجزل لهم العطاء، وبعض الناس يقولون إن عطاءه كان محصورًا ليتامى الأب فقط؛ فيتقرب بذلك من الأرامل الحسناوات، ويمسك يده عمن فقدت جمالها، الوقح الخسيس يتخذ من حاجة الأطفال وجوعهم وسيلةً لكسر عنفوان أمهاتهم، وكذلك شأنه في حقله يُقاسم العاملات به أرباحه لتحقيق غاياته الدنيئة، فحريٌ بكُما ألا تثقان بذاك الوغد، فإن صح ما يتناقله الأهالي عنه في القرية فإن نهايةً وخيمة ستلاقيه.

أضاف "يعقوب": ولكنها تبقى أقاويل، ولم نر شيئًا مما تقوله أنت.

- يبدو أنه كَبَحَ جماح شهوته إلا فيما يناله بعيداً عن الأعين، ومن يدري...!؟ اخلدا إلى النوم هنا فقد نال التعب من جسديكما وعَقليكما، وفي الصباح تصعدان إلى المغارة التي تحدثنا عنها، لن تضيعا ستجدانها في أعلى الطريق، وقبل قمة الجبل بقليل هناك خمسة أشجار تنحني كلُ واحدة على الأخرى وخلف أغصانها الدانية ستجدان مطلبكما، أما الآن فإني أستودعكما الآلهة.

قالت "أراس" وهي تنهض من مجلسها: انتظر قليلًا، سآخذ بعض الأشياء بقيت على فرسي، ولتأخذه أنت معك، كي لا يلفت نظر المارة، ولن نستطيع أن ندخله المغارة ونبقيه برفقتنا.

- لا تخشي المارة، فصعود الجبل شاق ومتعب، وقلائل هم من يمرون بطريقه، على أي حال سيكون من الأفضل أن أصطحبه معي.

غادر "جورج" المكان، وافترشت "أراس" و"يعقوب" الأرض، والنار بينهما تتراقص لانضمام قصائص خشب جديدة إلى حفلتها... وبعد فترة طويلة من سكون المكان وضجة العقول قال "يعقوب" ضاحكًا: سبق وتمنيت أن أكون رجلًا يمنحك الحياة، وأنت اليوم سببًا يُقربني من الموت...!!

ضحكت "أراس" ثم سألته وعيناها نحو السقف تنظران: وهل تخشى الموت؟

- يخشى الموت من كان له أناس يُحَبدّ رفقتهم، فكلما زاد مقدار تعلق المرء بأشياء في دنياه؛ زاد بذلك مقدار خشيته من الموت، أما الذين لا تتعلق قلوبهم بشيءٍ من الدنيا، والذين لم يبق لهم في الحياة أمر يقاتلون من أجله ولو بمقدار عشقٍ أو فكرة، نراهم يقبلون على الموت دون خشيةٍ أو هلع.

- وهل لك من تخشى الموت لأجله؟
- ربما أنتِ.
إن كُنت أنا فقط، فلا خشيةً عليك ولا قلق.
ضج صدر "يعقوب" بالضحك لتلكَ الكلمات الواثقة التي ألقتها "أراس"، وراح القلق والأرق اللذان غلفا عقله وعيناه، ولم تمض دقائق حتى وافاه النوم وكذلك "أراس" غطت في نومٍ عميق ولو أنهما يعلمان ما يُحاك لهما في هذه الأثناء؛ لما وجد النوم إلى عينيهما سبيلًا، ولا عرفت الطمأنينة إلى قلبيهما مدخلًا، ففي تلك الأثناء عادَ رئيس الحرس "سفيان" برفقة نفرٍ من جنوده إلى منزل كبير الحكماء "أوندال" ووجهه يُنذر بكارثةٍ حصلت، كان الشطر الأول من الليل قد انقضى وعم السكون في الأرجاء وراحت الخفافيش تجول الحقول مؤنسةً بصوتها الساهرين أولئك الذين وجدوا في ظلام الليل حجابا للحب وما تفيض به نفوسهم من العشق، وميقظة الجزع والفزع في أفئدة مَن وجدوه ستارة لما تطفح به نفوسهم مِن رديء العمل، قرع الباب على عجل واستمر بفعله هذا لعدة دقائق دون أن يجيبه أحد، وإذ بصوتٍ يأتيه من طريق الحقل خلفه: على رسلك أيها الطارق...على رسلك!
استدار فرأى الحكيم "أوندال" يعدو باتجاهه إلى أن تعداه باتجاه باب المنزل وقال وهو يلتقط أنفاسه: الحَق بي ودع حراسك يراقبون الحقل.
أومأ "سفيان" برأسه للحكيم، وأشار لجنوده أن نفذوا ما سمعتم ثم لحق بسيده نحو الحجرة، مرت عليه بضع دقائق وهو ينظر إلى سيده وقد وقف بجوار الجدار وولى وجهه إلى الحائط؛ بعد أن أشعل سراجًا عُلق عليه وشمعًا على الطاولة، وقال بعد صمت:

سيدي إنني خرجت من عندك الليلة وذهبت إلى مقر الحرس كي أنتظِر خلوّ الطرقات مما تبقى من أعين الساهرين، وبعد ذلك استبدلت ثياب الحرس بأخرى كي أتجنب أن أعرف لو أن عينًا يقظة لمحتني، وكان برفقتي أحد الحرس وهو من أقرب الرجال لي وأشدهم بأسًا وإخلاصًا، وأتينا سويًا إلى الحقل لننهي الأمر كما شئت أنت وخططت، وبَعد بحثٍ طويل...

قاطعه "أوندال" وهو يلتفت إليه: وبعد بحثٍ طويل لم تعثر على "يعقوب"...!

- لم أترك مكانًا إلا وبحثت به، جِلت الحقل كله حتى التراب كدت أن أقلبه رأسًا على عقب لأجد أثرًا له، وخلعت باب حجرته في أول الحقل فلم أجده، فخرجت لساحة القرية وأرسلت رجلي ليحضر نفرًا من الجنود وعندما وصل لي برفقتهم أمرتهم ليتبينوا أثره في القرية وما وجدوا أكثر مما وجد الباحث عن إبرة في كَوَمة قش.

قال "أوندال" وقد همّ للجلوس وأشار لـ"سفيان" ليجلس أيضا: أما أنا فقد وجدت أثره، هز "سفيان" رأسه يريد تفسيرًا لما سمع بينما تابع "أوندال" كلامه: خَرجت خلفكم وقد انقضى الوقت الذي اتفقنا عليه لتنفيذ الأمر، شيءٌ ما دفعني للخروج ورؤية الحقل وقد خلا من "يعقوب"، ذلك الخوف الذي أخلفه بصدري حارس الحقل، فوصلت حجرته ورأيت بابها مفتوحًا على مصراعيه وقد خلت من ساكنها فعلمت حينها أن الأمر قد تم، وعُدت أدراجي ماشيًا في الحقل مُطرقًا رأسي أرضًا والشكُ ما زال يجول في صدري، وأثناء ذلك لمحت على الأرض هذا الكيس، وأخرج من تحت ردائه كيسًا ذهبي اللون بحجم الكف، فشدني

لونه في ذاك الظلام وبدى وقد سقط من أحدهم، فدنوت وانتشلته من موضع سقوطه، وبعد أن فككت الوثاق الذي عليه وجدت أن به خِتمًا وأنت تعلم أن ما من أحدٍ يُسمح له بامتلاك ختمٍ كهذا إلا الحكماء والبعض من العائلات الرفيعة في قرانا وهم قلائل؛ دققت به النظر مستعينا بضوء القمر والذي بدوره كشف لي أنه ملكٌ للحكيم المعزول فلبثت هناك أفكر لدقائق حتى سمعت صهيل خيول قادمة، فتداريت عن الطريق وتجنبت أن أرى قبل أن أعرف من الآتي، فرأيتك برفقة الجنود وعندها تأكدت من الظنون والمخاوف التي كانت تجول برأسي، ضم يده وضرب الطاولة برفق وحسرة، كاتمًا غضبه ثم أردف يقول: كان يجب أن أنتهي من أمره قبل أن أرسل في طلب "أراس".

- أتقصد أنهما التقيا سويًا ورحلا معًا... ومما تخاف الفتاة حتى ترحل...! لو أنها على دراية بالأمر لجاءت إليك وحدثتك فيما علمت.

- وهنا بيت القصيد... قد أتت الفتاة حقلي ووصلت باب منزلي وما من تفسير آخر لوجود ختم أبيها وعائلتها في الحقل؛ إلا أنها قد مرت منه هذه الليلة، فلماذا رحلت قبل أن تراني؟ فإن كان "يعقوب" قد أفضى إليها بما رأى من أثار القتل على جسد أبيها فيجب أن تحدثني في الأمر وتتبين حقيقة تكتُّمي عليه، أما وقد اختفيا سويا فهذا يعني أن هناك أمرًا يحيكانه معًا، وأنا الأحمق قد أثبت صحة مقتل الحكيم عندما هددت "يعقوب" كي أضمن صمته.

- ليتك أخبرته أن تلك الأثار التي شاهدها كانت بسبب الوباء الذي تفشى بالجبل الشرقي لكنا قد انتهينا من أمره

كما فعلت مع الحكماء، وأرى أنك بهذه الحيلة جعلتنا في منأى عن الشكوك في اختفاء الحكيم عارف وطلبته.

- لم يسعفني عقلي بذاك المخرج إلا عندما واجهني الحكماء بما يعرفون، أما بعد الدفن فقد كان الخوف مستحوذا على عقلي وقلبي ولم أستطع التفكير، لم أجد سوى بثّ الخوف في صدره وسيلة للنجاة، لا تحاسبني الآن وأنصت إلي! سترسل أحد جنودك إلى القرية التي تسكنها "أراس" ليستقصيَ لنا إن عادت إلى بيتها أم لا؛ وإن عادت دعه يتأكد إن كان "يعقوب" برفقتها... وحتمًا سيجدهما هناك سويًا.

- سأذهب أنا، وإن كان "يعقوب" هناك سأنهي أمره بنفسي، وهي فرصة لنا أن نتخلص منه بعيدًا عن القرية.

لوّح الحكيم بيده وهو يقول بضجر: أنصت إليّ أيها الأبله... لن نستفيد شيئًا من قتل "يعقوب" إن كان قد أفضى بما رأى وبما قلت إلى "أراس" فإن هدفنا الأهم هو الفتاة الآن، ولا أظن أن الفتاة ستكون لقمة هينة فإن لها أعوانا ومحبين في القرية هنا وفي قرى الجبل أجمع، يقدسونها كما يقدسون أباها، أرسل أحد جنودك الذين يعرفون "يعقوب" كي يتأكد لنا من تواجدهما معًا أولًا، ويُراسلك بأخبارهما وما ينجزان، وليبقى في مقر الحرس الخاص بتلك القرية.

ملأ كأسًا من النبيذ لنفسه وآخر لـ"سفيان" وحمل كأسه ثم وقف أمام أحد الأيقونات يتأمل ما فيها ويحدث نفسه بصمت: ماذا لو كان أبوها قد أخبرها بشيءٍ من أمري لكانت قد اعتزلته ولم تجلب لنفسها الشقاء في إقناع الناس به، أما الآن وقد وضعتُ ضمنَ دائرةِ الشكِ بمقتلِ أبيها؛ فلا أظنها سوف تجعل الأمرَ يمرُ دونَ أن تثأر لمقتله، وما كان يعلمه أبوها

كفيلٌ بأن يجعل جميع قرى الجبل تقف مطالبةً بقتلي، كَم من المصائب نوقع بها أنفسنا بسبب بعض الخيارات التي نتخذها، لن يعيد لنا الندم تلك الخيارات الخاطئة لنُعَدلَ عنها، فحريٌ بنا أن نُكمل ما بدأناه، استدار إلى "سفيان" عندما سمعه يقول: أتدري يا سيدي صدق من قال: إن ما تراه نقمةً وعذابا يراه غيرك مكرمةً ونجاة.

تقدم الحكيم نحوه بخطىً بطيئة وضاقت عيناه وأشار بيده مُستفهما.

- أعني أن الختمَ الذي وجدته سيَضعُ بين أيدينا أموالًا لا بأس بها.

مسح الحكيم رأسه بكفه ثم زفر ما بصدره من هواء وضحك حتى ارتجت لضحكه جدران الحجرة، واستوى على كرسيه وهو يقول: ويضمن لنا أن "أراس" و"يعقوب" إن ظهرا وأسمعا أهل القرية وجبالها وسماءها وتحدثا للطيور في أعشاشها لن يُصدقهما أحد، وسيرفع عن كاهلنا أيضًا ما نخشى ظهوره من أعمالٍ مَضت.

ثم تابع بهدوء: وإني أرى أهل القرية يصلبون "أراس" و"يعقوب" في ساحة القرية كما أراك الآن.

3_المذكرة الأولى

أدعى الحكيم الأكبر، أو هذا هو اللقب الذي نلته في مبنى الحكماء وقد سُلب مني فيما بعد بمكيدةٍ من عَمل الشيطان، حتى إذا أراد أحدٌ ذكري في قرى الجبل قال الحكيم المعزول أو القديسُ الفاسق، قرى الجبل هذه التي دخلتها شابًا يافعًا طالبًا الحكمة والعلم في مبنى الحكماء، هُيئ إليّ في بادئ الأمر أني قد سلكت طريقًا سأنتشي من رائحة الزهور المرصوفة على جانبيه، ولكن ما وجدت سوى الصعاب المطرزة بالأشواك فيما بعد، وما حسبته هينًا لينًا كان صعبًا عسيرًا، ولكن الشغف الذي تملكني جعل لأشواك الطريق عطرًا، ولعثراته أيادٍ تدفعني للنهوض إذ أسقط وتمسح على جراحي بحنان ورفق.

خضتُ في شتى العلوم ولاحقت أصحابها كصغير الظبي يهرول خلف أمه لتعطيه حاجته من الغذاء والأمان، كثر من حولي الأصدقاء وراح حب القرية وساكنيها يعلو في فؤادي، وبعد أن توفي والدي نلت ميراثًا وافرًا فأخذت لنفسي حقلًا كبير، وائتمنت عليه عمالًا مخلصين، باغيًا بذلك ألا أنشغل عن مقصدي الذي أتيتُ لأجله في مبنى الحكماء، فما أزور الحقل إلا ليلًا قاصدًا النوم، وغالبًا ما كنت أقضي الليالي في مبنى الحكماء برفقة صُحبتي من الطلبة، وتوالت الأيام وطوت بعضها بعضًا وكان لي أن أصبح واحدًا من الحكماء الثمانية الذين يحكمون قرى الجبل، وذاك قدرٌ رفيع لا يناله إلا من صلح دينه وكثر علمه، وجرت العادة على أن يكون الحكيم الجديد من اختيار الحكماء أنفسهم، وهم أيضًا يرشحون أحدهم ليكون كبيرًا لهم، بيده الأمر والنهي وله يرجع فصل

الخطاب، وبعد سنوات قضيتها حكيماً اجتهدت في عملي قدر ما أستطيع دُفعت إلي الرئاسة واندفعت إليها فنِلت بها السلطة على الناس، فما من كلمةٍ أقولها أو أمرٍ أبدي به رأيًا حتى ينصاع الجمع له فرحين مُستبشرين، وما أشقى صاحبَ السلطة...!! فالمرء يلتزم بحمائد الأخلاق إما حبًا للآلهة أو خشية الناس أو برَادعٍ من ضميره فإن نسي دينه وزالت خشيته للناس بسلطته عليهم فلن يقوى الضمير على ردعه حينذاك.

فتحت الدنيا أمامي وكثر من حولي المتملقين، وكان حُب العامة من الناس لي يزدادُ يوما بعد يوم، والحقد في قلوب أصحاب المصالح يتكاثر وينمو، فلم أكترث لهم وأكملت في طريقي سائرًا أنشر حق الإله في خلقه وأرضه، حتى دفعني القدر إلى هذا الكهف، واليوم وَقد أصبحت وحيداً ونَسي ذِكري من قلوب الناس أقول: إن اتباع الحق دون محاسبة من يضعون العثرات في طريقه، عملٌ يهدم أكثر مما يبني، على أية حال الاعتراف بالخطأ بعد مرور سنوات عليه خيرٌ من السكوت، ويواسيني في مجلسي هذا أني قد وجدت نفسي، وما من شيءٍ أعظم من أن يجد المرءُ نفسه ويعرف خباياها، تلك الخبايا التي تخشى الظهور إن كان في الأرجاء بشرٌ قريب، والحقيقة أنني لا أكتبُ هذه المذكرات كي أبينَ وأخَلدَ ما قمت به في تلك الأيام المنصرمة، إنما أكتب لأجل الحقيقة فقط، يقال: إن شر القريب كالسيف إن لم يقطع فإنه يجرح ويُهشم، ومن شر القريب أمسيتُ بمكاني هذا مهشما معزولًا ونال مني باطلًا أحسبه زائلا وإن طال مقامه، والحق أنه كان بإمكاني أن أضع حداً لذاك الشيطان لا يقوى على تجاوزه، فالمصائب الكبرى لا تولد في لحظة وأخرى، إنما هي

تراكمات لأمور صغيرة يحسبها المرء سفاسف يمكنه تجاوزها وأخطاء يستطيع إصلاحها، حتى يجدها وقد أصبحت سيلًا جارفًا يحمل ما يعترض طريقه،

بدأ الأمر بموت أحد الحكماء وكان صديقًا مُحببًا لي، وذاك بعد أن مر زمان على تنصيبي كبيرًا للحكماء، ووفقًا لما جرت عليه العادة رشحت طالبين ممن كان لهم سابقة حسنة بعلوم الطب والفلك والحساب، ولديهم من الورع ما يحيل بينهم وبين الخطيئة، ومن حب الآلهة ما يدفعهم للإخلاص في العمل وخدمة الناس القاصدين لأبوابهم، وبعد تصويت الحكماء للمرشحين كان الظفر لـ"أوندال"، ونال لقب الحكيم الذي يستحق حينها، وبذلك بدأ ذلك الرجل رحلته في مجلس الحكماء، وفيما سأذكره لاحقًا من أفعال الشيطان الذي تطوع "أوندال" للقيام بها سوف يتساءل من سيمر على هذه المذكرات مستقصيا عن الحقيقة بين حروفها عن سَبب ترشيحي لـ"أوندال" كي يكون حكيما ورجل دين مُتبَعا، يداوي الناس ويلاحق مُشكلاتهم، ويخوض في شؤونهم كالأب يخوض في شؤون أطفاله، وللسؤال إجابة تعود إلى قبل عام من انضمام "أوندال" لمجلس الحكماء وفي مساءِ يومٍ مُثلج من ذاك العام، عُدت إلى البيت فسمعت نحيب زوجتي قبل أن أنتهي من اجتياز الحقل، الذي كان الثلج يعلو أرضه فيعيق حركة الجياد، والريح تعصف وتقصف وتلاطم أجسادنا كامرأة تنهال بالضرب على معتدٍ قصدها، فكان صوت زوجتي يخترق جميع الأصوات كرمحٍ أطلق على صدر رجل أعزل، وصلتْ إلى المنزل بعد أن تركت الفرس وانطلقت قدماي تهرول، وجدت الخدم مُجتمعين وزوجتي على الأرض تنحب وتناجي ابنتها، أن لا تموت، اقتربت

من الفتاة وأدنيت رأسها نحوي، فنظرت إلي نظرةً ملأها الألم حَسبتها الأخيرة، وأغمَضَت جفنيها الناعسين ومال رأسها الصغير على يدَيّ.

مَضت ثلاثة أيام والفتاة ملقاة في سريرها، كَشمعة تذوب في أناة، فلا تأكلُ من الطعام إلا القليل، والمرض يزداد توغلًا في جسدها العليل، فحرت بها وحار في مرضها أصحابي من الحكماء والأطباء، فلا الدواء يُجدي ولا الانتظار ينفع، حتى جاءني "أوندال" وفي وجهه فرحة المنتصر وقد كان طالبًا في مبنى الحكماء حينها وقال بصوت منخفض خشية إزعاج الفتاة الراقدة: سيدي قرأت في إحدى الكتب عن عشبةٍ سامة تهتك جسد الماضغ لبعضها وتستنزف قواه فيرقد في سريره لا يقوى على شيء حتى تخرج روحه فينعم بذلك بالسلام، وأعراض الإصابة بها تشابهت بالتي ظهرت عند ابنتكم، فلا ينفع معها سوى هذا الترياق، وأشار إلى دواءٍ ضمه في يده كُنت حينها كتائهٍ في صحراء وأتاني "أوندال" كالماء الزلال؛ أذهب عطشي وروى ظمئي، فأعطيتها الترياق ونالت به الفتاة شفاءها، ولم تمض أيام حتى عادت تسرح بالحقل وتتلاعب بالثلج برفقة صحبتها من أبناء الخدم والحرس، وبذلك أثار هذا الطالبُ الألمعي إعجابي، لما لديه من النباهة واتقاد الفكر، فراحَ يسهر برفقتي الليالي الطوال، يطلب العلمَ فأعطيه، يسأل فأجيبه، يُخطئ فأرشده أضيق ذرعًا بالحياة فيكون نديمي ومؤنسي، فأصبحت مرجعه الوحيد، وأصبح طالبي المجتهد بعد أن كان يقطن في مبنى الحكماء يتوالى على تعليمه وزملائه الحكماء أجمع، وفيما يَخص ما مرت به ابنتي من مرض، فقد

أرسلت الطلبة للبحث عن تلك العشبة السامة، التي كنت على دراية بها من قبل، لكن عدم ظهورها في جبلنا والقرى التي ضمها كان دافعًا لإهمالي إياها، ومرت الأيام وطوت بعضها بعضًا، وأصبح المطيع متمردًا، والحكيم طائشًا، ومن كان يعمل حبًا في الناس عَظمت عليه نفسه وصارت هي المقصد، فما كان مني إلا أن تشاورت والحكماء في قضية عزله واستخلاف من هو أصلح لهذا الشأن، فعارضني البعض واستماتوا في الدفاع عنه، كأن في زواله زوال الحياة ومسرّاتها، حرتُ في شأنهم واكتفيتُ بتوجيه اللوم والإنذارات له راجيًا أن يعدل عن تصرفاته، أما عامة الناس فالكلام يخدعهم ويسيرهم، ومن امتلك مجامع الكلام امتلك رقابهم واستمالهم إليه، وذاك الرجل كان فصيحًا يُجيد رَصف الكلمات وتزيين ما فيها، فحتى الحنظل في كلامه تراه عسلًا وتشعر بمذاقه، ومن امتلك الفصاحة كانت له الغلبة على الحجة والبرهان، أعلمُ أنه لا يكفي أن أشير إلى ما كان عليه الرجل من خيرٍ، وكيف أصبح نبراسًا للشر فمختصر الكلام لا يُقنع ولا يُرشد؛ ولذلك سأخوض بالأحداث فيما بعد حتى يتسنى للمطلع عليها أن يعلم الحقيقة وقد أطيل الكلام وأسترسل في ذكر ما سَلف، فقد مَلتني جدران هذه المغارة وصمَّت أذناها عن حديثي فلم أجد سوى الحبر والورق يَسعد فيما أقول وَيحزن، حتى وإن كان للورق شعور وللجدران أذنان وحواس، فلست مهتما لشعورهما إزاء ما يسمعان من قولي، جُل ما أريده هو الإنصات فقط وقد وجدت ضالتي في الورق والمحبرة.

4- الموت للخائن... الويل لسارق الرغيف.

وَقف "أوندال" في مُنتصف ساحة القرية، واجتمع الناس من حوله والشمس مبشرةً بالمغيبِ وقال خاطبًا بملء صوته: أيها الناس أيها الناس...أنصتوا واستمعوا!

في أيامٍ خَلَتْ كَثر الهمس حول غياب حارس الحقل "يعقوب" وإن أيامًا عدة مرت على اختفائه، وهو أمرٌ لا أدري من الذي نقله من الحقل إليكم، وأنتم يا أبناء قريتي الطيبين الصالحين يحقُ لكم أن تتهامسوا وتتساءلوا في أي شيء يشغل عقولكم... وما أقف أمامكم هذا الموقف إلا لأفصحَ لكم عما جرى، وشوقًا لرؤية العدالة تطبق على من أغرته نفسه وسلكَ دروب الشيطان!

جَميعكم يعرف "يعقوب"، أليس كذلك؟؟ نعم جميعكم يعرفه، فقد كان لي بمثابة اليد اليمنى، فهو وحق الإله لا يقلُ شأنًا عن ولدي عباس، فما من أمرٍ أحتاج به للمساعدة في سبيل خدمتكم إلا وكان أول الباذلين أنفسهم في سبيلي، واليوم رمانا الدهر بخيانةٍ هي العظمى والقاسمة للظهر، خيانة تذهب المروءة من رؤوس الأشراف، نعم أيها السادة الطيبون، إن "يعقوب" هذا، ارتكب إثمًا لا يُغفر، إثمًا يوجبُ عليكم أنتم أن تنزلوا به أشد العقوبات قصاصًا عليه.

وَكيف لا وقد اعتدى على دينكم، وسعى لتدنيس مقدساتكم، فهذا الذي ائتمناه ورعيناهُ صغيرًا حتى اشتد عوده وبلغ أشده رمانا بدهائه ومكره، فمنذ أيام اختفى كتابنا المقدس الذي خطه سيدنا بيده منذ آلاف السنين، وأنتم تعلمون القيمة الدينية التي يحملها هذا الكتاب! وإن آخرين ليبذلون أموالهم وأرواح أبنائهم كي يحظوا به، استل "يعقوب"

مفتاح الحجرة التي تشَرفت بضم الكتاب بين جدرانها وتسلل إليها دون أن يلحظه أحد فسرقه قبل أن يغادر القرية.

صرخ بعض الجمع: القتل للخائن... القتل للخائن.

أشار "أوندال" بكلتا يديه للجمع الملتف من حوله يهدئه ويحضه على الإنصات ثم تابع: والحقيقة أنني اكتشفت ما حدث بعد أن فقدت أرباح الحقل لهذا العام، والتي كانت مخصصة لكم أنتم ولأبنائكم، وكما جرت العادة هذه الأموال يتم توزيعها كل عام على من يحتاجها، إنها أموال الفقراء والجوعى من أبناء قريتنا، آه آه... كيف لإنسانٍ ذي شرف ومروءة أن يتجرأ على سلب الرغيف من أبناء جلدته الحالمين بحبة حنطة...!!؟ وبعد أن علمت ورئيس الحرس أن "يعقوب" هو الجاني وهو المختلس لرغيف أطفالنا ذهبنا لتفقد حجرته، وهناك بتلك الحجرة المشؤومة كانَ الخبر اليقين والجواب الشافي لكل ما حدث.

أخرج "أوندال" من ردائه خطابًا ملفوفًا وأخذ شهيقا وراح يقرأ ما فيه على مسامع الخلق المحتشد: ((عزيزي "يعقوب" أرجو أن تكون بخير وهذا ما أتمناه دائمًا، أخط لك هذه الرسالة وقد فاض شوقي إلى لقياك، قد لا أجيد البوح بحقيقة المشاعر التي تعتريني كما تحسن أنت ولكن على أية حال يكفي أن تعلم بأني لن أتخلى عنك أبدًا مهما كلفني الأمر وإن كان نصيبك الشقاء سوف أشاركك به وإن كان النعيم فيكفي أني أراك به سعيدًا مُطمئنًا، وأتمنى أن تدرك القيمة الكبيرة لما طلبتُ منك الإتيان به، ففيه الخلاص والنعيم لكلينا، وقد زارني الرجل مرات عديدة آملًا في أن يجدك وقد انتهيت من مهمتك المطلوبة وأشار إلى أن الأموال ستكون بين بنانك

تتراقص لحظة استلامه لمطلبه، تلك الأموال التي ستجعل من كلينا أسيادًا نرضي بها نفوسنا ونسد رغباتها وتستريح أنت من عناء الحراسة ومتطلبات سيدك الخرف وأخيرًا لك مني وافر الحب)) المخلصة دائمًا "أراس".

أيها السادة الأخيار، هذا نصُ رسالة عثرنا عليه بحجرة "يعقوب"، وكانت مشيئة الآلهة أن ينساه "يعقوب" ويغفل عن إخفائه أو إتلافه، فما من عاقل يتركُ دليلًا كهذا على نفسه، ولكنها مشيئة الإله وحده.

خَرج "جورج" من وسط الحشد وتقدم إلى "أوندال" وكأنه مقدمٌ إلى مُشاجرة وصاح به بأعلا صوته: "أراس" لا تقدم على مثل هذا الفعل الخبيث، ما هذا التجني أتراك جُننت ولا تعقل ما تقول...!؟

وأشار بيده نحو الحشد وتابع: وأنتم ما لكم تصفقون وتحزنون وتزمجرون كما الذئاب بعد وقوع أي خبر على مسامعكم ألا تتبينوا حقيقة ما يروى على مسامعكم، أوليس لكم عقول ترشدكم نحو الصواب!؟ لماذا إذًا تسمحون لغيركم في تسييرها مثلما يشاء؟ جميعكم يَعلم أن "يعقوب" رجل لم يؤذ أحدًا فيما سبق ولو حتى بكلمة، وما وجدنا منه سوى الخير فنعم الشاب هو، سيأتي "يعقوب" وستظهر "أراس" ونتبين الصدق فيما قص علينا، وللصدق منازل أعلاها ما يقال بدافع الضمير وصفاء السريرة، وأدناها ما يُقال بغية تزين شرٍ أو تحقيق مصلحة، وأنا الآن بينكم أقول لكم بدافع الضمير إن "يعقوب" و"أراس" بريئان مما قيل عنهما ومُنزهان عن مثل تلك الخِسة.

ضَم "أوندال" كفيه إلى بعضهما وقال: كَم أتمنى لو كان كلامك صحيحًا يا سيدي، ولكن أنى لنا أن نغمض الأعين عن الحجة، وهل تحجب الشمس بالتمني؟

ثم التفت إلى الحشد وتابع: الكثير منكم يا أحبائي لا يعلم أن "أراس" هذه التي نذكرها هي ابنة الحكيم المعزول، ذاك الحكيم الذي كان له سابقةً في سرقة المقدسات والتنعم بأموالها، وانظروا بأعينكم إلى خِتم العائلة التي وضعته الفتاة أسفل الرسالة، انظر يا "جورج" أليس هذا ختم الحكيم الأكبر وعائلته، ومن تبقى من عائلته سوى الفتاة...؟! وقد ورثته عن أبيها بعدَ أن تم تجريده من ممتلكاته ومزاياه.

صمت "جورج" والغضب يعمل بصدره كما يعمل المحراث في الأرض ولم ينبس ببنت شفة، بينما تابع "أوندال" قائلًا: فمن هذه اللحظة يجب أن يشارك جميع أهل القرية في السعي خلف ذلك العاصي الذي استخف بمقدساته وسعى إلى تدنيسها، ذلك الذي سرق ونهب أموالًا كانت ستسد رمق أطفالكم، ومن يعلم عنه خبرًا ويخفيه عن رئيس الحرس؛ سننزل به أشد العقوبات وسيلقى ما يستحق من الألم والحرمان، والذي يقدم خبرًا عن مكان تواجده سيفتح له النعيم أبوابه وسينال مني عطاءً تعجز عن وصفه الشعراء.

هب الجمع يردد خلف أحد حرس القرية الذي كان جهور الصوت: الموت للخائن... الويل لسارق الرغيف...

الموت للخائن... الويل لسارق الرغيف...

عاد "جورج" إلى دكانه بعد أن تفرق الجمع وتمسمر على بابها ويداه تشد إحداهما على الأخرى خلف ظهره، وأخذ يحدث نفسه: ماذا لو كان ذلك النبأ صحيحًا...؟! كيف يصح وقد

رأيتهما بنفسي سويًا ليلة هربا... وما هربا إلا على غرار التحذير الذي وصلهما من الحكماء ولولا ذلك لكان "يعقوب" قتيلًا الآن أو الآلهة وحدها التي كانت تعلم بحاله، ذلك التافه الخرف من أين أتى بالرسالة إذًا...؟

قطع حديث نفسه بصوت عباس وهو يقول: هيه "جورج" من سمعك اليوم وأنت تدافع عن اللصين يظنُ أنهم سيعطونك نصف ما كسبوا.

وعباس هذا الابن الوحيد للحكيم "أوندال" وقد توفيت أمه بعد ولادته فلم ينل منها سوى حياتها التي بذلتها في ولادته وقبلةً على جبينه أودعته إياها قبيل رحيلها، وهو شاب طويل القامة، عريض الصدر، نقيُ البشرة، فتان الطلة، مرح اللقاء، اتسعت له قلوب الرحماء من الناس وضاق عنه قلب أبيه، هكذا كان يتحدث عنه المشفقون عليه من أهل قريته والمحيطون بأخباره.

التفت إليه "جورج" وحياه قائلًا: أهلًا عباس... أهلًا بك يا بُني وربت على كتفه ثم تابع: متى عُدت إلى القرية هل وصلت اليوم؟

- لا منذ يومين، وكان لي بعض الشؤون في مبنى الحكماء انشغلت بها وبوالدي بعض الشيء، خرجت إلى الساحة كي ألقي السلام عليك فرأيت ما كان، أدنى رأسه من أذن "جورج" وتابع وهو يضحك: خشيت أن يصل الأمر بينك وبين والدي إلى العراك فأحار مع أيكما أقف، ألا تهدئ من نفسك يا رجل، لا أراك إلا وأنت غاضب تشاجر أحدهم وتضرب آخر أو يعلو صياحك في إحدى شؤونك فتسمعه قرى الجبل برُمتها.

- هى هى هى... لا عليك لا عليك هو أمرٌ اعتدته واعتاد الناس على طبعي، تعال فاجلس وحدثني عن رحلتك، كيف كانت؟

- كما هي في كل مرة أخرج من القرية برفقة الطلبة نترحل بين قرى الجبل نقدم العلاج لمن أراد ، ونبذل ما بحوزتنا من علم لمن يبحثُ عنه، فمنا من يستقر بيه الحال في إحدى القرى لشأنٍ يقصده والآخرون يتابعون الترحال، وفي موسم الحصاد نعود إلى مبنى الحكماء برفقة طلبةٍ جدد أثروا العلم على القنوط بصحبة الأهل.

- أراك منشرح الصدر لما تقوم به من عمل!

- هى هى هى... تقصد مشكلتي وأبي، في بادئ الأمر تطوعت لقيادة هذا العمل مجبرًا حانقًا كي أبقى بعيدًا عنه، وأنت تعلم لما... فرجلٌ مثلي لا يقوى على أن يبقى مستظلًا تحت شجرةٍ ثمارها فاسدة، وكلما ناقشته في شأنٍ من شؤون العمل وتعارض رأيي ورأيه، انحدر عليّ بالتوبيخ كما ينحدر الصخر من أعلى الجبل... وهو يتمتم بأنها شؤون السلطة ويجب أن أتقنها كما يفعل، لذلك في البداية كان يستحوذ عليّ الغضب مع كل رحلة أقوم بها لأنها كانت وسيلة اتخذتها للهروب من القرية ومن أعمال والدي، أما الآن فإني أحبُ ما أعمل وأحزن ويضيق صدري عندما أعود للقرية... حذارٍ يا سيدي، لو سمع أبي ما أقول عنه لصلبني على تيك الشجرة.

ضحك "جورج" وربت على ركبة صاحبه الجاثم أمامه وهو يقول: لو كان برفقتي ثلاثة رجال على شاكلتك لأطحت بأبيك وجلست مكانه.

- إذًا لأصلِّي للآلهة وأشكرها على خلقي منفردًا دون أشباه، قل لي لماذا وقفت اليوم موقف المدافع عن "يعقوب" وتيك الأخرى؟ رجلٌ سرق كتابًا مُقدسًا خُط من آلاف السنين قاصدًا بيعه والتمتع بثمنه واختفى بعد ذلك والدليل واضح لمن أمعن النظر، وعملٌ كهذا يأتي على صاحبه بالهلاك والموت، إن فيه خيانةً لقرى الجبل وساكنيها ومساسا بمقدساتهم.

- تقول هذا الكلام عن صديق لك نشأت وإياه سويًا ولو كان على ما أذكر يكبرك ببضع سنين، وأنت عالمٌ وواثق بأن "يعقوب" رجلٌ صالح!!

- لكل جوادٍ كبوة.

- ما الذي تريد أن تصل إليه يا عباس؟

- ما كُنت لتخرج وتدافع عنه بين جمع من الناس المؤمنة بصدق ما يقول والدي إلا وأنت واثق مما تقول، فما الذي يدفع كبير الحكماء للتجني على حارس حقل بسيط، وما الذي يدفع الجزار لمخالفة كبير الحكماء والتشكيك بصحة ما روى؟!

دعني أسألك سؤالًا يا عباس.

- تفضل... كُلي أذانٌ صاغية.

- هل تثقُ بي؟

أخذ عباس شهيقًا وأراح ظهره حتى سمع طقطقةً تخرج من بين فقراته ثم أجاب: أنت تعرف أن ما من أحد أثق به في القرية كلها كما أثق بك أنت.

- إذًا اعلم أن الحقيقة غير ما سمعت، وكم يصعب عليّ أن أقول لك إن أباك قد بدأ في أمرٍ به هلاكه، فلا تبحث وتفكر في أكثر من ذلك، ولأنني أعلمُ من أنت وكيف تفكر أقول لك

ذلك وأنا مطمئن أنك لن تحدث أباك فيما أقول، فأسرع بالخروج من القرية ولا تطل المقام بها.

خلا وجه عباس من التعابير وقال بصوت هادئ: لا أطيل المقام هنا حتى لا أرى هلاكه على حد تعبيرك...!

- أنتَ أعلم الناس بأبيك، فسكان القرية هنا يرونه رجُل دين تقيا يسوق لهم رضا الآلهة ويحبس عنهم غضبها، وقلائل هم من يعلمون حقيقته.

- لن تفصح لي أكثر عما يجري هنا، وأنا لن أكثر الأسئلة، الأيام كفيلة بأن تظهر لنا جميع الخبايا، وكم أخشى ألا أقوى على تحمل ما ستظهره.

- على العكس يا بني، إن أمثالك لقادرون على نصرة العدالة ولو بذلوا بذلك دماءهم، وكلما وهنت قوتهم أمدوها بأمل المظلوم وعذابه، فلا تحزن وطب خاطرًا، وكما قلت لك لا تقحم نفسك في الأمر فإن فيه من يعز عليك أن تراه ظالمًا مخادعًا، ولا أريد أن يأتي عليك زمنٌ تقدم فيه على ما تكره لأجل من تحب.

غادرَ عباس مَجلس الجزار لا يلوي على شيء، وسعى بين الحقول على قدميه، والليل قد أرخى سدوله، يُقلب برأسه ما سمع في الساحة من كلمات صدح بها أبوه وآراءٍ أفضى بها "جورج" الجزار، وهو يقول لنفسه بحسرةٍ لا تنقطع: مِنذ الصغر وأنا أعلم أن علاقتي بأبي سيأتي عليها يوم لا تقوم لها به قائمة، وكم أحسب هذا اليوم قريبا، لطالما تمنيت أن أكون ولدًا لأبٍ رحيم، وهل يُعقل ألا يكون الأبُ رؤوفًا رحيما؟ يرى جناح ولده منكسرًا فيبذل له جناحيه، يراه ضعيفًا فيمده بقوته، غافلًا يذكره، طائشًا يعقله، ساقطًا ينتشله، تائهًا يرشده، متعبًا

يمسح على جبينه بحُنو وهو يقول له: لا تحفل بدنياك ما دُمتُ معك، ولكن أنى لوالدي أن يمتلك من الرحمة بعضها، فكان ومازال يراني ولداً عاقًا يجلب الشؤم، كيفَ لا وأنا الطفل الذي قتل أمه لحظة ولادته... ذلك الأحمق كَيف لرجل بمكانته أن يفكر بمثل هذا... ما وجد من فرصة تلوح أمامه لتذكيري بأني السبب الذي سلب حُب حياته من بين أصابعه إلا واستغلها، وإذ وجدني وقد أصبحت رجُلًا على حين غفلةٍ منه، أراد تقريبي منه وتربيتي بما يناسِب عقله ويخدِم مصلحته، أين كانَ عندما كُنت أتسول العطف من آباءِ صُحبتي وثلة من الحكماء، أين كان في ليالٍ قضيتها عليلًا ولم أجد سوى بعض الحسرات الزائفة من أناسٍ يتملقون لابن كبير الحكماء، والآن أقدمَ على تلكَ الحماقةِ وليتني لم أرها، فإن صَمتُ عنها كان صمتي باطلًا وظلمًا ينال من أصحاب الحق، وإن بُحت بما رأيت كانَ هلاك والدي وزوال ما لنا من السلطة وعظيم الشأن بين الناس... أين المخرج وفي نجاة أحدهما هلاك الآخر!؟

أطرقَ رأسه أرضًا، وتابع سيره يجر قدما من خلفه ساغبًا متعبًا شاردَ اللبِ، حتى اجتاز حقل أبيه ولم يلحظ الشبان الثلاثة خلفاء "يعقوب" بحراسة الحقل عندما مر بهم، حتى إن أحدهم ألقى عليه التحية لكنها لم تجد أذانًا مُرحبة، والحقل في طبيعته لا يحتاج إلى عدد من الحراس، ولم يسبق لأحد الملاك أن استأجر لحقله حارسًا، فغالبًا ما يكون بالحقل بعض الفلاحين ينامون به ليلًا ويعملون بأرضه نهارًا، لكن الميل عن الحق واستلال سيف الظلم يجعل أقدام صاحبه ترتعد حتى من زقزقة العصافير وتغريد البلابل، وفي الأيام القلائل الماضية انساب الخوف إلى عقل "أوندال" كما ينساب الماء في الترعة،

لذلك كان منه أن استأجر ثلاثةً من شبان القرية الأشداء المخلصين لنقود سيدهم أيًا كان ما يريده، ليردع بهم مخاوفه قليلًا، دخلَ عباس المنزل ليجد أباه وقد استوى على الأريكة، ووضعت أمامه مائدة تزدحم بألوان اللحوم وقد همّ بمضغ اللقمة الأولى، تقدم نحوه وجلس بجانبه وشرع بتناول طعامه دون أن يتفوهَ بكلمةٍ واحدة، وبعد أن فرغ من العراك مع الديك الموضوع أمامه وتغلب عليه ولم يُبق من أثره شيئًا في الطبق أراح ظهره على مسند الأريكة وقال وهو ينظر إلى والده الذي كان قد فرغ هو الآخر من تناول طعامه: وقد كُنت دائما تحبذ التحدث على مائدة الطعام، فمالي أراك عدلت عن ذلك؟ على أية حال كان الطعام شهيًا لينًا، وكنت جائعًا متعبًا ولو حدثتني لما سمعت منك كلمةً واحدة.

- رأيتكَ تأكُل بنهمٍ وشعرت أنك لن تصغي لشيءٍ سوى صوت اللحم يتقطع تحت نواجذك، فأثرت الصمت على الكلام.

- لدي الكثير من الكلام الذي أود أن أفضي به إليك يا أبَتِ.

صرخ "أوندال": أيتها الفتاة ائتني بإناء النبيذ، ألم أخبرك مرارًا ألا تخلو مائدة العشاء منه.

أتت الخادمة بإناء النبيذ النحاسي مطرقةً رأسها أرضًا؛ لتتجنب نظرات الحكيم المؤنبة، ووضعتها على المائدة وعادت إلى المطبخ وقد أطلقت أذنيها لتتصيد ما يحمله الهواء من كلماتٍ وأخبار، لتنقلهم إلى الطبيب إبراهيم عندما تلتقيه، تابع "أوندال" حديثه: دعني أسألك أولًا لمَ لمْ أرك اليوم في مبنى الحكماء؟ بحثت عنك فلم أجدك... كُنْت أود أن تكون بجانبي عندما خرجت للناس وأخبرتهم بسرقة الكتاب المقدس وفرار "يعقوب"، فأين كُنت؟ ويبدو أن أمرًا جَللًا ستمر

به القرية في الأيام المقبلة وأنا أريدك هنا بجانبي فلا تخرج مع المسافرين في الرحلة القادمة، وسأخبر الحكيم صادق كي يستخلف بدلًا عنك أحد الطلبة الذين يثق بهم، أتفهم؟!
اتكأ عباس على الطاولة بكلتا يديه ومد عُنقه، ثم قال: دعنا من مسألة السفر الآن سنتحدث بها لاحقا، وبما أنك بدأت الحديث عن سرقة كتاب القديس، قل لي إذًا يا أبتِ المُبجل... قل لي لمَ أخفيته؟؟ ها لمَ سرقته واتهمت ذاك المسكين بالأمر؟
سقط الكلام على مسامع "أوندال" كما تساقطت الحمم بعد أن لفظها البركان، وصمت لهنيهةٍ ثم نطق: ما تقول أيها الأبله؟
- يا أبتِ أخبرني بالأمر كُله وقد نجد مخرجا منه دون أن يتضرر أحد؟ فقد رأيتك ليلة عدت من سفري وقد حط الرفاق رحالهم في مبنى الحكماء وأعدنا الخيول إلى الاسطبل الخاص بالمعبد وتابعت أنا سيري إلى المنزل، كان الظلام حالكًا والقمر قد اختفى ما تبقى من نوره، دخلت الحقل ووقفت عند حجرة "يعقوب" وقد حدثتني نفسي بأن ألقي عليه التحية قبل أن أستأنف المسير لكنني لم أجده فتابعت السير، وإذا بصوتٍ يأتي من داخل الحقل، فظننته صادرًا من "يعقوب" واتجهت إلى مصدره أمشي الهوينة حذار أن يراني؛ قاصدًا بذلك إخافته وترويعه فتداريت خلف الأشجار لأراه فإذا برجلٍ يحفر الأرض وقد انقطع نفسه من التعب، وبعد أن فرغ من الحفر وضع داخل الحفرة قطعة ملفوفة من القماش كانت بجانبه وهال التراب فوقها ومشى في سبيله، فأثار الأمر فضولي وحفرت في ذات المكان وبعد أن أخرجت قطعة القماش وفككت الوثاق عنها

وجدت كتاب القديس بداخلها، فأعدته لداخل الحفرة وذهبت إلى مبنى الحكماء وقضيت تلك الليلة به برفقة الطلبة.

قاطعه "أوندال" قائلًا: على رسلك... على رسلك لا تكمل فقد بات الأمر واضحًا... لمَ لمْ ترني نفسك حينها أيها الأبله، وهل تظن أن أباك قد يخفي عنك شيئًا إلَّا خشية عليك؟ كُنت سأخبرك بكل شيءٍ في وقت ما، أما الآن فاكتم الأمر ولا تسألني بخصوصه، ولتعلم أن غايتي أن نسودَ الناس.

وقف عباس وهبّ يقول: لن أكتم أمرًا ستسحق به عُنق مظلوم، إما أن تخبرني بأصل الأمر لنجد مخرجا منه لا يُضَرُ به أحد؛ أو فاعلم أنني لن أبقى مكتوف الأيدي حيال ما يحدث، أتخفي الكتاب وتتهمُ رجلًا بسرقته!؟ أخبرني لمَ؟ ومهما عظم الأمر وأيًا كانت السلطة التي تمتلكها إياكَ أن تعتقد أنك مُخول لتسحق الأعناق وتئدَ الأحلام وتدمي العيون دون أن يحاسبكَ أحد، سيأتي يوم ينال به كُل ظالمٍ جزاءه ولن تجد حينها من يحميك من سيف العدل وسطوته.

علَمَ "أوندال" أن الغضب والتهديدات لن تجدي نفعا في ترويض ثورٍ هائج فقال له برفقٍ وصوت هادئ: اجلس يا بني... اجلس وهدئ من روعك قليلًا.

ثم نهض وملأ لابنه ولنفسه كأس نبيذٍ من الإناء الموضوع في الجهة الأخرى للمائدة، وقال بعد أن ارتشف قليلًا من كأسه: أنت يا بني كان لك نصيب التجوال بين الكثير من القرى والمدن، ومن يُكثر الترحال يؤمن بقرارة نفسه أن الحياة تبسط يديها للأقوى، ذاك الذي يمتلك المال والنفوذ، وهما كُل ما يرتجيه العاقل كي يسود بهما الناس، ويوصلهم إلى بر الأمان برفقته، وأنا كُنتُ تابعًا أرى طرُق التغيير فأشير لها فلا يصغي

إليّ أحد، والآن وقد أمسيتُ متبوعا ولو سِرت في طريق الهلاك لتبعني الناس دون أن يعترضني أحد، فلمَ لا نزيد من قوتنا ونعلو بها أكثر فلا تتوقف سلطتنا عند هذا الجبل وحسب بل تمتد حتى تشمل الجبل الشرقي أيضًا ولن يطول الوقت قبل أن ينصاع لسلطة مجلس الحكماء وستكون أنت عامل المجلس فيه، كِلانا أنا وأنت يُريد الخير لهذا الجبل الذي نحكم، أليس كذلك؟! فلا تحفل بما تراه من سيئ العمل وقد أقدمت عليه، فهي وسائل قد تراها سيئة وأنا أراها كذلك أيضًا لكن أين الحل ولم أجد لها بديلًا يعينني على الوصول للغاية العليا، وإن تحقيق أنبل الغايات يجبرنا على الخوض في القذارة أحيانًا.

ضحك عباس وقال ساخرا: أين الخير الذي تريده؟ أتحسبني أحمق لا أرى الذي يجري لأولئك المساكين في أرضك وتحت سلطتك!؟ فالفقير هنا يزدادُ فقرًا والقوي يزدادُ بطشًا، وما فتئَ أعوانك يتصيدون قوتَ أخوتهم في هذه الأرض باسم الرب، ومن صَلح من أتباعك لا يجرؤ على معارضة من فسِدَ خشيةً على نفسه وسلطته، أهكذا يكون الخير الذي تدعو إليه، أهكذا يكون الصلاح، بأن يقتاتَ الشعب على الفتات وللحاكم نصيبُ الأسد من خيرات شعبه، لا تحدثني عن الغايات النبيلة إن كانت الطرق إليها دنيئة مليئة بالخِسة.

- لماذا لا تقنع بأنك خُلقت لغير ذلك يا فتى، هي الحياة منذ الأزل بها الحاكم والمحكوم بها الخير والشر، وقليلٌ من الشر الذي تصفني أنت به يدفع عنا شرورًا لا طاقة لنا ولأهل الجبل بتحملها، فلو أننا واجهنا وباءً أو عدوانًا من أين سيقتاتُ أولئك المساكين، هي أموالٌ ندخرها لنسموا وإياهم، ولو أنهم علموا

بخيراتٍ خُفيت عنهم لطالب كُلٌ منهم بنصيبه كاملًا وما وجدنا عند الشدة ما يعيننا وإياهم على تجاوزه.

- لن أخوض بجدال عقيمٍ مَعك بهذا الأمر، أريدك فقط أن تكف عن أمر "يعقوب" والفتاة وليكن ما تريد.

- لا أستطيع، هو أمرٌ قد بدأته وعواقب التراجع عنه أكبر وأعظم، انس أمرهما، احتد صوت "أوندال" وتابع قائلًا وهو ينظر في عيني عباس والغضب قد أخذ منه كُل مأخذ: إما أن تنسى ما رأيت وتبقى بجانبي أو أن تسير بقافلة الطلبة من جديد ومن صباح الغد، ولو تخلفت عنها لأمرت رئيس الحرس بإيداعِك السجن لعصيانِك أمرَ المجلس، ولن أشفِقَ عليك لأنك ولدي بل ستنال من العقاب أشده، ومن الحرمان أعظمه، اغرب عن وجهي الآن ولا تدعني أراك ولتغضب عليك الآلهة، ولدٌ عنيدٌ أحمق.

وقفَ عباس وهمّ بالخروج ولا يدري أين يذهب بنفسه وما إن ابتعدَ عن أبيه قليلًا حتى استدار إليه قائلًا بملء صوته: ومن أخبرك أني أحفل بك أيها الخرف الفاسِد، كُنت سأرحل الآن وسأغادر القرية كما أريدُ أنا لا كما تريد أنت، ولتعلم أننا إن التقينا مجددًا لن تلتقي بولدك الذي عهدت، إنما ستلتقي بكابوسك الذي سيضيق عليك الفضاء بوسعه.

خرج عباس من المنزل وأغلق الباب خلفه بقوةٍ ارتجت الجدران من وقعها، وبقي "أوندال" على الأريكة متعبًا وكأن صخرةً قد رميت على صدره فأعيت عليه التنفس لدقائق، ولو أنه عَلمَ ما سيكون له فيما بعد من ولده هذا لكان قد أقدم على شيءٍ آخر يختلف عن طرده وتعنيفه.

5- المذكرة الثانية.

تولى "أوندال" مجلس الحكيم ويومًا بعد يوم كان يُبهر أهل القرية بأخلاقه الحسنة، وليس غريبًا أن تكون تلك الأخلاق لرجل دينٍ وعلم، إنما الغريب هو تطوعه لبذل خدماتٍ ليست من واجباته، كأن يخرُج على رأس قوافل الشفاء التي تجوب الجبل، وهذا أمرٌ استحدثه الحكماء وكان مقتصرًا على الطلبة، وكم كانت سعادة العوام كبيرة إذ يرون حكيما يتجول بينهم، فيقدم العلاج لمن يريد، ويصلي للآلهة لترفع البلاء عنهم، ويُكثر البذل من أموال المعبد للفقراء من الناس، حتى إن أقرانه من الحكماء كانوا يُظهرون الإعجاب بما يفعل، حتى وإن كانت الغيرة والحسد تجول بصدورهم، ليس علينا أن نخمن ما في الصدور؛ الإنسان مجهول، بوجوه عدة، ولنا منها ما نراه فقط، قال لي أحدُ الطلبة الذين رافقوا "أوندال" في سفره الأخير ويُدعى إبراهيم: إن الحكيم دخل بنا قريةً لم نعرفها من قبل وراح الناس يتجمهرون حوله ويتدافعون إليه إذ وصل معبدهم، وعرفوه بأنه حكيم من مجلس الحكماء، وكالعادة افترق الطلبة في القرية يلتمسون حوائج الناس ليقضوها لهم، ومن كان عنده طفل عليل تراكض به نحو الحكيم ليقرأ عليه الصلوات ويباركه؛ عسى أن يكون سبيلًا لشفائه، وبينما الناس ينتظرون خروج الحكيم إليهم على بوابة المعبد، راعني أن رأيتُ امرأةً برفقة طفلها تجلس على جدارٍ صغير يحوي على طوله ورودًا بألوان مختلفة وأنواعٍ شتى، والناس يتجنبون الاقتراب منها ويختلسون النظر بعيون ملأتها الدهشة إليها وإلى ابنها، الذي وصفه أحدهم بأنه لعنة الآلهة على الأرض، وكان طفلًا لا يتجاوز السابعة من عمره، انتشر الشعر بجسده ووجهه

حتى يظنه الناظرُ ذئبًا من فرط الشعر الذي عليه، وأخذت الأم تذرف الدمع وتمسحُ على رأسه وتحمي وجهه من نظرات الحاضرين، وما هي إلا دقائق حتى خرج الحكيم إليهم، فتهافت الناس عليه يرجون التبرك به وقضاء حوائجهم، هرولت المرأة باتجاهه كظامئٍ في الصحراء رأى بئر ماء، وارتمت عند قدميه وأمسكت بثوبه وقالت وهي تنوح: خلصنا يا سيدي مما نحنُ فيه، أنت التقي وبيدكَ خلاصنا، مَسح "أوندال" على رأسها برفق وأخذ الطفل من يدها، لم يسبق له أن رأى إنسانًا به هذه الصفات الغريبة، استأنفت المرأة قولها: هذا طفلي وقد ولد على هذه الحالة، أهو عقابٌ من الآلهة...؟ البعض يصفونه بالشيطان، وآخرون يقولون إننا ارتكبنا إثمًا فعاقبتنا الآلهة عليه، لكن لا يا سيدي أنا تقية ورعة أخشى الآلهة وأحبها، ليس عندي من الآثام غير الذي يرتكبها كُل البشر، أظن أنه أبوه، ذلك الوغد لم تفلت فتاة من تحت يده، حتى العفيفات منهن، كان يجدُ بابًا يلج منه إلى قلوبهن، حتى وجده أحد الأزواج بصحبة زوجته، فانهال عليه ضربا بالعصا حتى فتح رأسه ومات على إثرها، وكنت حبلى بهذا الطفل حينذاك، ارفع عنا اللعنة أيها التقي النقي، ما ذنب هذا الطفل كي يعيش بوجهٍ حيواني وكيف له أن يتحمل سخرية البشر وقسوتهم...! وتهافتت بعض النسوة إلى جانبها يَصِحن والدموع تطفح من أعينهن: خلصها من بلائها يا سيدي، إنها امرأة مسكينة لم يبق لها أحدٌ سوى هذا الطفل المستذئب.

وما ذكرتُ هذه القصة إلا توضيحًا لما آل إليه "أوندال" من عظمةٍ نتاج ما آلت إليه أحوال الناس من جهل، فهل يكون الشفاء بيد رجلٍ حتى وإن كان تقيًا، قد يكون عالمًا فيصف

الدواء الشافي لمن يحتاجه، أما ما قالته تلك الأم وضعت به "أوندال" بمنزلة الآلهة الذي بيده رفع البلاء وجلب الهناء، وما هذا سوى نتاج جهلٍ تفشى بعقولهم، وعلمتُ حينها أن البلاء طرق أبوابنا، فما من شعبٍ ينزل أسياده منزلة الإله إلا ويلقى بلاءه.

وحين سمعت تلك القصة من فم إبراهيم زاد ارتيابي من ذلك الرجل فأرسلت في طلبه على الفور وما هي إلا دقائق حتى قرع باب حجرتي في مبنى الحكماء ودخل إليها ضاحكًا مستبشرًا وهو يقول: اعذرني يا سيدي كنت سآتي إليك البارحة فور وصولي ولكن مشقة السفر حالت بيني وبين ذلك، أشرت له بالجلوس وأعدلت من جلستي خلف الطاولة ثم قلت: حدثني... كيف كانت جولتك... هل سار كل شيءٍ كما خططت له؟

- على أفضل ما يرتجيه المرء... أرهقنا قليلًا، لكن لا بأس، لطالما بذل القديسين أرواحهم في سبيل الخير، فماذا يعادل هذا الإرهاق أمام من يبذل روحه ودمه في هذه السبيل!؟

أعجبتني إجابته، كان يتحدث باندفاع الواثق الصادق، وعيناه تلمع فرحًا لما جنته يداه، قلتُ له: أفي سبيل الآلهة وحدها تخرج...؟!

- ما الذي تعنيه...؟ وهل هناك من شيءٍ آخر يستحقُ أن أبذل العناء لأجله سوى رضا الآلهة وخدمة الناس...!

- إنه المجد... السعي لبلوغه يتطلب عناءً أيضًا، ومن يدري قد يبذل الإنسان دمه في سبيل أن ينال اسمه مجدًا في الدنيا.

- وهل نخطئ إن طلبنا المجد لأنفسنا يا سيدي؟

- نخطئ إن نحن بنينا مجدنا على أنقاض الآخرين ومآسيهم.

- إلى ماذا تروم يا سيدي... أظن أنني لم أفهم ما تعنيه... هل لك أن تبسط ما تريده؟

- لا تهتم... أظن أني في الآونة الأخيرة أتحدث بكلامٍ أنا لا أفهمه أيضًا، لا عليك، لا عليك... أريد أن قول لك بأنك لن تخرج مع القوافل المسيرة من القرية مرةً أخرى.

بدت ملامح الصدمة على وجنتيه وهو يقول: هل بدر مني شيء فيما مضى دفعك لهذا القرار!!؟

- ليس شرًا... إنما هو العمل، أريدُك بجانبي، فالحكماء مكانهم في هذا المبنى وفي المعبد والحجاج يتوافدون إلينا في كُل وقت والأعمال كثيرة فهذا هو الأفضل.

ابتسم "أوندال" وقال: كما تريد يا كبير الحكماء.

عَجبت من كلماته الراضية في حين كُنت أنتظر منه السخط والرفض أو الجدال لمنع القرار، سررت حينها أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد وبهذه السرعة، مع أن شيئًا بداخلي كان يَهمس بأن كارثةً توشكُ أن تلم بنا، لم أكترث لتلك الهواجس، ومضيتُ في علاقتنا بعيدًا عنها، بل إني لطالما نظرتُ له بعين الإعجاب لما يقومُ به، لا أدري كيف للمرء أن تكون له عيونٌ متناقضة يرى بها الجمال والقبح في الآن ذاته، أم أن التناقض ليس من شأن العيون إنما هو تلوُّن البشر وتبدُل أحوالهم، وذاك "أوندال" بقي جميلًا حتى زاد قوته، سألني يومًا عن القوة أين يجدها؟

فقلتُ له: في العمل الصالح والتفاف الناس حولك، فإن لم تجدها فعليك بالحُب فإن امرأةً تتقوى بحبها تغنيك عن ألف رجلٍ يقاتلون من أجلك، والقوة تشترى بالمال أيضًا وتلك قوة زائلة لا تطول لصاحبها، وخير القوة تلك التي يستمدها

الإنسان من أعماق نفسه، فما رأيتُ أحدًا قط علم مكامن القوة بداخله وهُزم بعدها، و"أوندال" هذا أخذ من كُل نورٍ قبسا، إلا أنه ابتعد عن شراء القوة بالمال وابتاعها بحُلم رجل لنيل السلطة، فبعد مضي زمن على منعه مرافقة القوافل بلغنا أن رئيس الحرس طريح الفراش وقد أعياه المرض، فتطوع "أوندال" للإشراف على علاجه، وكانَ له ذلك حقًا، وما هي إلا أيام حتى أحضر الرجل للمعبد لتقام له مراسم الدفن، وكان خبرًا مفجعًا للقرية برُمتها، فاجتمع المجلس بعد الدفن لاختيار من يخلفه في رئاسة الحرس فقلتُ والحكماء السبعة ملتفون من حولي على المنضدة: قد توفي الرجل وجديرٌ بنا أن نجد من يسد مكانه دون تباطؤ؛ فهل هناكَ من ترونه مناسبًا لرئاسة الحرس أيها السادة؟

ضاقت الطاولة بالأسماء الملقاة عليها، وكلٌ يصف محاسن مرشحه ويزينه ليتناسب مع المنصب المنتظر كأمٍ تعرضُ محاسنَ ابنتها لشابٍ ترجوه لها زوجًا، واستطاع "أوندال" بكلماته الرنانة ودهائه الفريد أن يُقنع الجمع بمرشحه المدعو "سفيان"، ولو كان لنا القدرة على رؤية المستقبل ومعرفة خباياه؛ لما تم قبوله لرئاسة الحرس، كم من الأمور لو علمنا خواتيمها لما أقدمنا عليها وفررنا منها كغزالةٍ تفرُ من الليثِ الهزبر، وفي النهاية مصيرُ الخبايا أن تظهر للعلن واضحةً جلية، تتراقص أمام الأعين حتى يشبعُ منها الناظر، ومن تلك الخبايا هي تلك العشبة السامة التي كادت أن تقتل ابنتي في سالف الزمان، من كان يدري أن بعد مرور سنوات على شفائها من السقم الذي كاد أن يودي بها؛ أن يرتفع الحجاب عن السبب الأول لإصابتها؟!

6- وما وجدَ المحبون عدواً ألدُ منَ الهجر.

في صبيحةِ اليوم التالي استيقظ "يعقوب" على ترنيماتٍ شجيةٍ بُعثت من ناي "أراس"، فخرج من باب الكهف ليرى أربع شجراتٍ خُضر يحضنُ كُل منهما الآخرة وخامسةٌ وحيدة مال جذعها إلى الفتاة وكأنه رق لحالها فانحنى عليها يحميها بأوراقه العطوفةِ ويحضنها بغصونه الهزيلةِ، انكبت الفتاة على نايها تبثُ فيه أنفاساً محملةً بمزيج الحسرة والألم؛ لتخرجَ من قصبته على شكل تعويذاتٍ تنكأ ما التأم من جروح في أفئدةِ المنصتين، ركن "يعقوب" على جذع الشجرة بجوار الفتاة وقد ضل قلبه مما يسمع، وما رَشَدَ حتى تلاشت الأنغام من فضائه وحل صوت "أراس" الدافئ مكانها وهي تقول: استيقظ الشقي.

- إن أزعجك ذلك سأعود للنوم حالًا.

- نعم، قد أفسدت خلوتي باقتحامكَ لها.

- وهل يختلي المرءُ بنفسه هنا على سفح الجبل! أين تريدين أن أذهبَ بنفسي لتنعمين بعزلةٍ هادئةٍ، على غرار أبيكِ، ثم إنكِ أنتِ من أزعجني بتلكَ الأصوات التي تخرجيها من قصبتك هذه، وكأنها طبول الحرب تدب الخوف في قلوب الأمهات، هي هي.

رَفعت الفتاة حاجبها وأسدلت الآخر، وهوت بقبضتها على كتف "يعقوب" وهي تقول مستنكرة: لمْ يُعجبك إذا...؟!

أجاب "يعقوب" ضاحكًا من وقع الضربةِ التي فوجئَ بها: بلى بلى أعجبني، أعجبني حتى أطربَ روحي، أتعلمين أفضل من يعزف على الناي في قرى الجبل كُلها؟

- لا أعرفه... من هو؟!

- وأنا أيضًا لا أعرفه، ولكن إن وجد، فأنتِ أفضل منه أيضًا، لا أشكُ بذلكَ أبدًا.

اقتربت الفتاة كاللبؤة من وجه "يعقوب" حتى دنا جانبه من الأرض وهو يحاول الابتعاد عنها وقالت له وهي تنظر في عينيه: أحقًا ما تقول؟

هز برأسه مؤكدًا ما قاله، وقد زمّ شفتيه ليلجُمَ ضحكته.

عادت الفتاة إلى جلستها وعادَ هو الآخر إلى فيئ الشجرة بجوارها، مرت دقائق محفوفةٌ بصخبِ الصمت وضحكِ النظرات ثم قالت "أراس": الآن وجميع الناس يترصدون لنا، حتى الطير السابح والنمل الدائب، فنحن المُتهمون في سرقةِ كتابِ القديس وغلةِ المحصول لحقول المعبد، أتعلم ما الذي دفعني لزيارة منزلي في هذه الأوقات العصيبةِ دون اكتراث لأحد...!؟ فقط كي أحصل على هذا الناي، فلكُل امرئ في الدنيا وسيلةٌ يخفف بها العناء عن نفسه، وتلك هي وسيلتي ومنجيتي، قال "يعقوب" وقد ضم ركبتيه بيديه: ولكن ما كانَ يَجِبُ أن نخاطرَ بأنفسنا في الذهاب إلى المنزل وقد علِمَ "أوندال" أنك أتيتِ حقله وتلاقينا سويًا، وأخبر الحكماء أنني سرقت كتابَ القديس، وما هي إلا أيام حتى يخرج للناس فيخبرهم بأمرنا ويَهبُ الجبل في البحثِ عني.

- ولكن الأمر ما زال طي الكتمان، فلم يُكثر "أوندال" على أن أعلم الحكماء ورئيس الحرس به، هذا ما أخبرنا به "جورج" عندما أتانا منذ أيام، وقد نقله إليه الحكيم صادق لكن كيف له أن يُحيك أمرًا كهذا دون دليل عليه، إن بالأمر خبايا لا نعلمها.

- وما أدراكِ ألا يكون قد خرجَ للناس بعد ذلك وأطلق عنان لسانه وأطلعهم عليه، إن لم يأت خبرٌ من القريةِ اليوم عبر "جورج" أو ابنه، سأتسلل إليها ليلًا علّي أعلمُ ما جرى، فقد طالَ المقام بنا هنا و"جورج" منقطع عنا.

- آه يا "يعقوب"، كُل شيءٍ جائز... لا تحفل بما مضى قد انقضى الأمر ولم يصبنا مكروه.

- وتاللّه إن انتزاع أطرافي بنصلٍ صَدِئ، أحبُ إليّ من أن يُصيبك ما تكرهينه.

عقدت الفتاة حاجبيها وقلبها يخفق لما سَمعت وأردفت تقول: ألهذا الحد؟!

- هو شعُور أعمقُ مما قيل، وكم من مشاعرٍ مات أهلها قبل أن يجدوا كلماتٍ تفيها حقها في الوصف.

مسح "يعقوب" بكفيه على لحيته الحمراء بعدما شعر بتعرُّقِها وتابع يقول والبسمةُ قد ارتسمت على ثغره: من الأفضل أن أصمت أو أن تصمتيني أنتِ قبل أن أسترسل في حديثي هذا، فعندها لن أستطيع كبح جماح لساني،

استدارت الفتاة باتجاهه وقالت بعد أن ترَبعت: لا عليك لا عليك، قل ما تريد، فما من شيءٍ في الحياة أحبُ إليّ من حديثِ روحٍ صافيةٍ نقيةٍ، وفي عينيك أرى نقاء الروح واضحًا جليًا، وبما أن لسانك قد انطلق، على غير عادته، فإني أراك... أو دعني أقول أشعر أننا... أنا وأنت ندور حول حُبٍ كبرنا وإياه سويًا، فلمَ نبقيه شعورًا حبيس الصدور ولا نبوح به، فمنذُ رحلنا من القريةِ وأنت ملء جفوني، وأشعر أنني أنا أيضًا رفيقةُ أحلامك والمؤنسةُ لك في لياليكَ الموحشة، أليس كذلك؟

هز "يعقوب" رأسه مؤكدا صحة ما قالته الفتاة، بينما تابعت هي الأخرى متسائلة: فلماذا إذًا تبتعدُ بعد اقتراب، تميل بعد استقامة، تترنح بعد ثبات...؟!!! حتى رسائلك لي في السنوات المنصرمة، تارةً أراكَ فيها عاشقًا، وأخرى لا يزيد كلامك عن سؤال الغريب عن أحوال فتاةٍ استوقفها ليسترشدَ طريقه، ليمضي بعدَ ذلك في سبيله، وعندما ألقاك تعودُ إلى حالتك الأولى فلمَ هذا التقلب...؟

- مال "يعقوب" بنظره إلى السهل المتسع من تحته ثم قال وشفتاه ترتعش: لو أن رجلًا عشق حد التعب، هل تراه يرضى البؤس لمعشوقه؟

- بل يرفعه عنه بما أوتي من قدرة.

- نعم... يرفعه عنه ويحول بينه وبين البؤس بما أوتي من قوةٍ وقدرة.

هزت الفتاة رأسها وكأنها أدركت ما يصبو إليه "يعقوب"، والذي بدوره تابع قائلًا: أنا يا عزيزتي عِشتُ في كَنَف أبيكِ منذُ ولدت، وتوفي والداي قبل أن تفارق الطفولة جسدي، وكم كُنت أتمنى أن ألجأ لكِ ولعائلتك حينذاك، ولكن شاءت الأقدار أن أكون وحيدًا وبجانبي العشرات من الفلاحين وأهل القرية جميعًا، كانَ حلمًا لدي أن أكونَ رجلًا ذا شأنٍ في قريتي ولكن البؤساء يورثون أبناءهم البؤس أيضًا، وحراسة الحقل هذا ما ورثته من أبي.

كيف لي أن أكون أهلًا لحب ابنة كبير الحكماء، حتى وإن عُزل من منصبه وتلاشت سلطته، فلن يغير هذا من حقيقتك أنت، يغلبني حبي لك فأقترب منك بما أوتيتُ من حب، فأرى

افتقاري وشقائي فأشفقُ عليكِ من أن تشاركيني به؛ فأعدلُ عن أمري وأكتمه.

- وهل تظن أنني حمقاء لا أدرك حالتك التعيسة هذه أيها الأخرق؟!

أجاب "يعقوب" وهو يبتسم مجاهداً بأن لا تخرج الدمعة من عينه: هل أفضي إليكِ ما بنفسي كي تنعتيني بالأخرق.

- بل أنعتك بالأخرق لأنك تقرر بدلًا عني.

- هذا، هو مجملُ الأمر... فأيُ وعودٍ أستطيعُ أن أقدمها لكِ وهيهاتَ أن أجدَ كفاف يومي، ومازال يغالبني فيك العشق، عشقٌ راسخٌ تناقضت أحواله، أجده أحيانا كطاغية مُستبد لا يحفلُ بما يبقيه في الروح من كمدٍ وما يحدثه فيها من تلفٍ وخراب، وأحيانًا أخرى أجده وكأن به وقد ملأ نفسي وأفاضها سلاما، فأسعى بالأرض مرحًا، مقبلًا على الحياة لأستقبل ما تحمله من نوازل، فأيُ تناقضٍ هذا، وأي بلاء الذي حل بي؟

- وقد أخبرتني عن شعورك هذا، فما الذي تصبو إليه؟

هاجر الريق من فم "يعقوب" فمشى إلى المغارة وعاد منها بكوز ماء فشرب حتى ارتوت عروقه وتورد وجهه ثم جلس وأجاب: يصبو قلبي لأكون لكِ بمنزلة الجفن من الحدقة... ولكن هل ترَيْنَني أهلًا لذلك...؟ لا أدري!

- لمَ أنت بهذه الأنانية... تتحدثُ عن نفسكَ وما تريده دون أن تكترثَ لما أريده أنا، ألستُ جزءًا من القضية؟

- بلى، وأحسبُ أني ما تفوهت بشيءٍ يحيد عن صلاح أمرك وسكون عقلك.

- منذ الأزل، والفراق يهدم بالنفس أكثر مما يبني، وما وجدَ المحبون عدوا ألدُ من الهجر، فلا تحدثك نفسك به فيكون

سبب هلاكها، فلو كان البين قدرنا، فالبؤس لا محالة سيكون من نصيبنا.

جال بخاطر "يعقوب" ندمٌ على ما تفوه به، وما تعدى قوله أكثر من قول الواصب البائس الذي يحثُ محبوبه على تجنب البؤس ليريح بذلك ضميره، وفي سريرته يخشى أن ينصاع المحبوب لأمره فينصرف بذلك عن حبه، فلا هو يقوى على الهجر ولا سبيل لديه للنهوض من بؤرة شقائه، وقال بهدوء وكأن حمامةً بيضاء أقامت عشها على أحبال صوته فخشي ترويعها: كلمة تسمو بالروح فوق السحاب وأخرى تهبط بها في جوف بركانٍ هائج، وقد سما بي قولك، وفك وثاق روح قيدها خوفها من الغد.

تمايل رأس الفتاة يمنةً ويسرة وتخضّب خدها، وبينما هي تقول: دعنا ندخل المغارة الآن فهذا وقتٌ يكثر به المتجولون، قام "يعقوب" راكضًا إلى المغارة، فصرخت به: ما بك وكأنك لسعت من أفعى...؟ وعادَ بالقوس والأسهم قائلًا بفرح: سمعتُ ضغيب أرنبٍ... أين هو؟ لا بد أنه حولنا، صمت الاثنان وسكن كُلٌ منهما في مكانه لا يتحرك به سوى حدقتيه الباحثتين، وبعد دقائق قليلة عاد ضغيب الأرنب ضيفًا على الأذان المترقبة، وظهر أخيرًا من خلف صخرةٍ بنية محاطة بالعشب أرنبٌ أبيض اللون، كبير الحجم، وأخذ يقضم ما تيسر له من وليمة الصباح الفاخرة، وينظر باتجاه الفتاة بعينين سوداوين لامعتين، سحب الرجل قوسه وأطلق السهم في الريح ليحلق باتجاه طريدته، فمر بقربها وارتطم بالصخرة، وبقي الأرنب يدور حول العشب قلق النفس من هؤلاء الغرباء الذين انتهكوا خصوصيته، عاجل "يعقوب" القوسَ بسهمٍ آخر وأحكم عليه

الخناق بين أصابعه، والفتاة بجانبه ترتقب ذلك الصيد وعيناها تتنقل بين السهم تارةً وبين الطريدة تارةً أخرى، كتم "يعقوب" نفسه وأطلق السهم ليستقر أخيرًا برقبة الأرنب الذي مشى سريعًا ثم هوى بجسده على الأرض، وانتفضت قدماه عدة مرات وما هي إلا لحظات حتى خرجت روحه وبقي جسده وليمةً للمنتظرين، ذهب "يعقوب" ليأتي بصيده وعاد وهو يحمله من قدميه بيده اليمنى وشادًا على القوس باليد الأخرى، ورفعه إلى موازاة وجهه وهو يقول: ها قد أتيت بطعام اليوم، لن نضطر للخروج ليلًا بغية البحث عن صيدٍ يسدُ رمقنا.

أجابت الفتاة ولو أنها تعلم ما الذي سيصادفها هناك لتراجعت عن قرارها هذا: سنخرج إلى القرية الليلة... قد يكون لنا صيد من نوع آخر.

- أخشى أن نكون نحن الصيد ولسنا الصائدين ها ها ها.

سَلخ "يعقوب" صيده وبدأ بتقليبه فوق النار التي أوقدتها الفتاة بالمغارة قبل أن تذهب لإحضار الماء من عين متفجرة في صخرة لا تبعد عن المغارة كثيرًا ويخرج منها الماء رطبًا زلالًا يروي كُل ما يعترض طريقه فترى حبلًا مُتموجا من النباتات الخضراء على جانبيه حتى أسفل الجبل، وما إن عادت حتى كان الصيد قاب قوسين أو أدنى من النضوج، فأكلا حتى شبعا وشربا حتى ارتويا، وما هي إلا أن مالت الشمس في السماء إلى الغروب حتى نال النعاس من الشاب، واستسلم للنوم، وأخذت الفتاة تقلب في مذكرات أبيها بتمعن، فتارةً تضحك لتذكرها الأيام الخالية وتارة تذرف الدموع حتى تروي وجنتيها فتدفع بما يأتيها من دموع متتالية إلى الفضاء، استيقظ "يعقوب" على صوت نحيبها المكتوم، فنظر إليها وآثار النوم مازالت على وجهه، لم يسألها

عما فيها فالإجابة معروفة عنده وحزنها ليس يجهله عاقلٌ، قال لها وقد استجمعت نفسها بعدما رأته مستيقظًا: هيا لنخرج، فالطريق طويل وما من دابةٍ تعيننا على سلوكه، أم أحسب أن الأفضل أن تبقيّ هنا، أذهب أنا وأعود لك بالأخبار.

قالت الفتاة وقد رفعت حاجبها وأسدلت الآخر كما تفعل عادةً عند رفضها للموقف: لا سنذهب معًا.

7- المذكرة الثالثة.

● ظن الحكيم "أوندال" أنه قد نال قوةً بتعيين "سفيان" رئيسًا للحرس، والحقيقة أني لم أعلم بالعلاقة الوطيدة بينهما إلا بعد فوات الأوان، فقد شككت بأن ترشيح "سفيان" هو أمرٌ خُطط له بعد مرور أيامٍ على تسلمه لرئاسة الحرس، إذ كُنت في منزلي ليلًا أتفقدُ فتاتي النائمة قبل أن أخلد إلى النوم أيضًا، نظرتُ إليها فبدت بفراشها ساكنةً ثابتة كريشة طوقتها حباتُ المطر، لتخرج في الصباح التالي وقد تحررت من قيود التعب، فتنجز ما تريد في انشراحٍ وسكينة، طرقَ الباب، فذهبت لأرى من القادم في هذا الوقت المتأخر والكُل نيام، دخل الرعب قلبي للحظات عندما رأيتُ رجلًا ملثمًا لا يظهرُ منه سوى عينيه اللامعتين في سواد الليل الحالك، ثبت أمامه ممسكًا الباب بيدي، وبقيتُ أنظر في عينيه، إحساسٌ انتابني بأن لي معرفةً سابقةً بتيكَ العينين، وزاد هذا الشك إذ بدأني القول بصوتٍ متراقص: لا تجزع أيها الحكيم فما أنا سوى ملاك أرسلته الآلهة لمساعدتك.

- وما اسمك أيها الملاك؟

- إن أسماء الرجال تفسد ما يودون قوله، فكم من رجل كُذبَ وقتل لأن اسمه دل على شأنه وكم من زيفٍ استحال حقيقةً باسم الناطق به؛ خُذ الحكمة أيًا كان صاحبها.

- كان واضحًا أنه يحاول أن يُغير من نبرة صوته كي لا أعرفها، قلتُ له وقد شوقتني إجابته لأعرف ما الذي يريده: وماذا عندك لي من الحكمة أيها الرجل أو أيها الملاك؟ قل لي أولًا كيف وصلت إلى هنا دون أن يراك حارس الحقل؟

- النوم فتنة؛ للساهرين عنوة.

- أها... هاتي ما عندك فإني مصغٍ إليك.

- هل تعلم سبب موت رئيس الحرس؟

- نال منه المرض فمات، لا أعلمُ ما الذي عان منه على وجه التحديد وما هو مرضه فقد كان الأمر سريعا، وأرجو أن تكون سريعًا في الكلام كسرعة رئيس الحرس في الموت.

- لا تضجر، فعندي لك من الكلام ما يسليك، منذ سنوات مَرضت ابنتك وكادت أن تفارق الحياة لولا أن أحد الطلبة لديك أتى لك بترياقٍ للعشبة التي تسممت بها، وقد أصبح ذاك الشاب حكيما في مجلس الحكماء، تذكُر هذا أليس كذلك...؟ أومأت له مؤكدًا كلامه، بينما تابع هو بأريحيةٍ أدهشتني أن تكون لرجل بموقفه هذا: والرجُل الذي أوصل تلك العشبة إلى فم ابنتك هو ذاته الذي وضعها من جديد في فم رئيس الحرس، نعم يا سيدي أريد أن أكون معك صريحًا قدر ما أستطيع، فكما تعلم لا يوجد صراحةٌ مطلقة، والأحمق من يخبر الناس بكل شيء يعرفه، يجب أن يبقى لدى العاقل بعض الأمور المبهمة لمن حوله، لكنني الآن لا أريد أن أكون عاقلًا فإني أخشى إن كُنت كذلك أن أكون سببًا لهلاكك

وهلاك قريتي التي أحب، يا سيدي إن الحكيم "أوندال" هو الذي ساق السم إلى منزلك منذ سنوات، ولا أعلم لمَ أنت تغاضيت عن أمرٍ كهذا ولم توله اهتمامًا لتصل إلى الحقيقة، وها هو اليوم قد نال من رئيس الحرس، هل تعلم لماذا...؟ كي يُقدم "سفيان" ويكون له عونًا على شرورٍ قادمة، الآلهة وحدها التي تعرف ما هي.

لبثت دقائق أفكر بما يقول وهو مُسهبٌ بالكلام حتى إنه أدهشني إذ أنزل اللثام عن وجهه وأخذ يقول وهو ممسك بكفي والغيظ جليًا بعينيه: لن أخاف من أحدٍ يا سيدي سأقف معك وأقول كُل ما أعرفه فإن كانت لك الغلبة سَلِمْتَ وأهلَ الجبلِ جميعًا، وإن كان نصيبك الهلاك فإننا هالكون بطريقة أو بأخرى.

كان ذاك الرجل إبراهيم أحد الطلبة القدامى في مبنى الحكماء، لم أجد جوابًا حينها، أومأت له بيدي فدخل المنزل وهو يتلفتُ يمنة ويسرة وقلتُ له بعد أن استوى على الأريكة وجلست بجانبه: إن كُنت تعلم أن "أوندال" كان خلف مرض ابنتي فلمَ سكت كُل هذه السنوات...؟ أفض بكُل ما في جعبتك من كلام ولا تخش شيئًا.

أخذ شهيقًا وقال: لن أخفي عنك شيئًا يا سيدي أعدك بذلك، إنني إن أخفيت عنك أمر "أوندال" فيما سبق فذلك لأني خوارٌ جبان، نعم أنا جبانٌ يا سيدي أقولها لك دون خجل! كُنت أيضًا أقرب الأمر لك دون توضيح وقد طمعت بفطنتك وذكائك أن تكتشف أن ذاك الرجل وغد ولكن حبك له حال دون ذلك، الجُبن قيد الإنسان والشجاعة حريته، نعم كُنت جبانًا لتلك اللحظة التي قررت نزع اللثام بها عن

وجهي، بل لتلك اللحظة التي عزمت بها على أن آتي إليك وأخبرك بالأمر، أما الآن فإني رجلٌ شجاع، أقولها بملء فمي فالشجاع من إذا أرادت نفسه خيرًا طاوعها عليه وإذا أرادت شرًا شد لجامها ومنعها منه، إن "أوندال" يا سيدي له أصدقاء في الجبل الشرقي هم الذين أتوا له بتلك العشبة، وشاءت الآلهة أن يكون أحدهم من أقربائي، هم مجموعة يا سيدي ليس لهم من يردعهم عن أذية الناس، وقريبي هذا هو ولدٌ طيب يقوم بخدمتهم وشحذ سيوفهم ويجودون عليه بالمال بعد كُل سطوٍ يقومون به، وقد سمعهم يتحدثون في إحدى الليالي المنصرمة أن رجلًا منهم كان هنا في المعبد وطلب الحكيم "أوندال" منه تلك العشبة السامة وأرشده إلى كيفية العثور عليها وذاك مقابل أجرٍ طبعًا، وعندما قال الرجل اسمها صاح أحدهم: تلك كفيلة بأن تسلب حياة رجل إن هو تناول بضْعَها، فلم يكترث البقية لهذا القول، فهدفهم المال وحده، ولما سمع قريبي بالأمر هاله ما وصل أذنيه وأرسل على الفور رسالةً لي شرح بها ما سمع، وعندما قرأت نص الرسالة تبادر إلى ذهني على الفور ما رأيته من حادثة ابنتك حيث إنني كنت شاهدًا على "أوندال" عندما قدم لفتاتك قطعة حلوة اشتراها من بائع متجول ووضع بداخلها القليل من تلك العشبة، وكانت حينها في المعبد برفقة أمها التي انشغلت عنها لدقائق فكان ما كان، وبعد أن قرأت نص الرسالة علمت أن ضحيةً أخرى ستسقط في الأيام القادمة، فكرتُ مليًا مَن مِن الممكن أن تكون، لم أعثر على إجابة لذاك السؤال إلا عندما توفي رئيس الحرس فعلمتُ أن "أوندال" خلف الأمر، ومن غيره، سألت بعض الحرس عن الأعراض التي كان يعاني منها رئيس الحرس قبل موته

فتأكدت من ظنوني، لم أستطع يا سيدي إلا أن آتي إليك وأخبرك بما أعلم، فهذا هو ما لك عندي، الذي يجرؤ على إنهاء حياة بريء لمرة واحدة لن يمنعه شيء من أن يعيد فعلته مئات المرات.

كان إبراهيم يتراقص أمامي ويتفصدُ رأسه الأملس عرقا ويختلج وجهه خوفا وتيهًا، شعرتُ بدوار، وكلماته تتساقطُ على مسامعي كالأسهم المشتعلة، تبادلنا الصمت لدقائق ثم قلتُ: لك أن تذهب واحفظ لسانك كيلا يُفلت بما فيه، عش كما لو أنك لم تر أو تعرف شيئًا.
فأجابني وقد نهض ومال بجسده: ولكن هل ستدع الأمر دون حراك...؟ أخبرني يا سيدي فإني خادمك المطيع، قلتُ له حينها: إن الحياة تقصي من يعيشها بقلبه وتهلك من يعيشها بعقله وتكثر العطاء لمن استطاع إشراك قلبه وعقله معًا في معتركها، "أوندال" ذاك هالك لا ريب، وإذ إن رئيس الحرس من أتباعه فجديرٌ بنا أن نقطع أوصاله بادئ ذي بدء.

8- تغمرنا الغبطة لحدثٍ حين وقوعه؛ ويعترينا الكمدُ لذكراه.

• خرجا من المغارة والليل يشبه بظلامه كُل ليلة إلا أن ما تبقى من القمر قد حجبته الغيوم، فلا يرى الناظر إليه سوى بعض الضوء المسجون خلف السحب لم يتحرر منه ليصل إلى الأرض سوى قليل القليل، مشى "يعقوب" في المقدمة و"أراس" من خلفه تتبع خطواته، وعواء الذئاب يقترب أحيانًا ويبتعد في

أخرى، ومع كل صوت لها كان "يعقوب" يتلفت حوله يُمنةً ويسرة، ويشد على نشابه، والفتاة قد نال منها الخوف قليلًا وكان يُسليها تواجدها بالقرب من "يعقوب"، استمرا بالمشي بهدوء مرةً، والقفز بين الصخور أو الهرولة لانحدار الأرض تحت قدميهما مرات أخرى، وبعد أن قطعا ثلثي المسافة وأصبحا على مشارف القرية قال "يعقوب" وهو يلهث: الآن وقد استقامت الأرض قليلًا بعد أن أجهدنا من انحدارها توقفي علنا نلتقط أنفاسنا التي فقدت... هنا هنا... لنتسلق تلك الشجرة، وأشار بيده إلى شجرة توتٍ بري ضخمة معمرة، تختفي السماء خلف أغصانها المتفرعة، وقد مالت بجذعها الثخين لتسهل على من أراد أن يأكل من خيراتها أن يتسلقها، قفز "يعقوب" على الجذع الذي ارتفع عن الأرض قليلًا وراح يمشي فوقه بحذر ولحقت به "أراس" حتى إذا وصلا أعلى الشجرة جلسا وأدلا بقدميهما إلى الأسفل، قالت "أراس" وهي تلتقط بعض حبات التوت من غصن طالته يدها: لمَ لمْ يعاود "جورج" القدوم إلينا في الأيام الماضية، أتحسب أن مكروهًا أصابه؟

- أستبعد هذا، أظن أن ما من حدث هام يدفعه للقدوم لنا، والمسافة إلى أعلى الجبل شاقة على رجل بعمره، من يدري...؟ عندما نلقاه سنعلم كل شيء.

- لا أظن ذلك، عدا عن أنه كان متشوقا ليعلم ما تحتويه مذكرات والدي، وأراد أن يقرأها بنفسه بعد أن أنتهي منها.

- آه... المذكرات هل أخبأتِها جيدًا؟

- أجل.

- أتدري شيئًا قد كتبت مذكرةً فيما مضى عن حُلمٍ رأيتك به.

- أنا...؟!

- نعم أنتِ.

صمت "يعقوب" وشخص نظره بعيداً في الأفق، حتى صاحت "أراس" وهي تلوح بيدها أمام عينيه: هيه أكمل ما الذي رأيته؟

- دعينا الآن نكمل طريقنا سأخبرك ونحن نسير.

نزل "يعقوب" من على الشجرة وأمسك بيد "أراس" لتقفز هي الأخرى وتستأنف بجانبه المسير بعد أن نالا قسطًا من الراحة وتابع هو يقول: ليس مهمًا ما رأيته في الحلم، ولو أنني استيقظت حينها والكون يضيق عن السعادة التي في صدري، المهم يا فتاتي أني هرولت إلى القلم وأفرغت ما بصدري من حبٍ على بعض الأوراق، حتى إن الحجر يرقّ لما بها من حُبٍ وشجن، ومضت الأيام بعدها، وعقلي بك مضطرب وقلبي لا يثبت على حالةٍ سوى حبك وقد عزمت على ألا أراسلك وأقطع جميع سبل اتصالنا إن توفرت وما كان هذا إلا سعيًا مني كي لا أراكِ وقد شاركتني البؤس الذي أعيش به، حتى إذا فاض شوقي لك في إحدى الليالي حدثتني نفسي أن أذهب لما كتبته علّي أجد به السلوى، وأزيح عنها بعض جمر البين، فلبثت ليلةً أقترب من الأوراق وأبتعد.

- آه... ولماذا تبتعد؟

- حلّ بي من فرط الشوق ما يجعل كلمةً عنك أو نظرة منك تفجر ينابيع الدمع عندي، خشيتُ إن أنا قرأت ما خططته عنك على الأوراق أن أنهزمَ له ويكون بذلك شقاؤك الدائم وسعادتي الزائلة.

- وهل قرأتها بعد ذلك...؟

- بل انهزمت قبل أن أقرأها فما هي إلا أيام حتى وجدتُ نفسي أخط رسالةً أخرى وأودعتها لك مع أحد المتنقلين.
- هى هى هى... أيها الأحمق.
- لستُ أحمق، فالأمر الذي وددت قوله في الحديث عن الذكريات أننا قد نكون في أعلى درجات النشوة والسعادة عند حدوث أمر ما، وما إن يُصبح في الماضي حتى تجلب لنا ذكراه حزنًا يُهلك النفوس ويُدمي الأفئدة، تغمرنا الغبطةُ لحدثٍ حين وقوعه؛ ويعترينا الكمدُ لذكراه.

كان مبنى المعبد قد بدأ يَظهر لهما بعد أن نزلا من أعلى الجبل وخاضا بين الحقول والمنازل بعيدًا عن الطرقات التي قد يصادفهما بها أحد يعرفهما، ولأن منزل الجزار بالقرب من ساحة القرية بزقاقٍ ضيق خلف دُكانه؛ تحتم عليهما أن يخرجا للطريق لاجتياز المعبد والساحة، وقف "يعقوب" على ناصية الطريق بعد أن التف من خلف حقول المعبد، وإذ به خاليا من كُل شيء إلا من الريح ومشاعل النار التي تضيئه وقد خمدت بعضها فبدآ بالمشي به والخوف رفيق لهما حتى قطعا، فارتاحت بذلك الأنفس قليلًا، اتكئا على جدار المعبد وأخذا يحملقان باتجاه دكان الجزار على الزاوية اليسرى المقابلة لهما، بدأت الفتاة بقطع الساحة إلى طرفها الآخر لوحدها حذار أن يُحدثا جلبةً تجذب الأنظار إن سارا معًا، وما إن وصلت إلى زقاق الجزار حتى أومأت بيدها إلى "يعقوب" الذي بدوره هبّ يهرول ورأسه بالأرض بعد أن شد اللثام عليه، وإذ به قطع نصف المسافة، سمع جلبةً من خلفه فاستدار ليتبين الأمر فتعثر بقدميه وطاح على وجهه، ركضت الفتاة إليه وجذبته من يده وتابعا السير دون أن يلتفتا، ولو أنهما نظرا خلفهما لتجنبا كثيرًا من الشرور

القادمة، وصلا إلى منزل الجزار، وهو منزلٌ من بعض غرفٍ متلاصقة، يجب على الداخل إليه أن يمر بفسحةٍ سماوية تحوي بعض الأغنام والدجاج والأوز، وبابها مُغلق بإحكام ولها سور قصير يحيط بها ويفصلها عن الطريق، قفز الاثنان إليها، وإذ أصبحا في مأمن جلسا على الأرض واستندا إلى السور والصدور حينها تعلو وتهبط، قالت "أراس" بحدةٍ خافتة: لمَ نظرت خلفك أيها الغبي، أتعلم أن الصوت الذي أصدرته بتعثرك هذا كفيلٌ بأن يوقظ طلبة المعبد ويجذب الحراس إلينا؟ ولحظة انتهت من قولها بدأ جيش الأوز يزبط بأعلا صوته قلقًا من وجود الغرباء، إذ إن من أراد أن ينام مطمئن البال على حديقته ومنزله من أهل القرية؛ كان يضع بها عددًا من الأوز لما له من صوتٍ حادٍ ومزعجٍ يصدره عندما يلمح شيئًا بجواره فيوقظ النائم وينبه الغافل، اتجه "يعقوب" والفتاة إلى باب المنزل سريعا كي يكف الأوز عن زبَطه، وإذ بالفتى يرفع يده كي يدق على الباب، فتح له وخرج الجزار وهو يرفع ساطوره بيده وكاد أن يهوي على القادم لولا أن صرخت الفتاة وهي تمسك بيده: أنا "أراس" ما خطبك يا رجل...!!

ذهل الجزار وقال: ابنتي...! ما الذي أتى بكما الآن؟؟ تفضلا بالدخول.

دخلت الفتاة وحيت الشاب الذي يقف خلف الجزار وهو ابنه لقمان، وكذلك فعل "يعقوب"، ولقمان هذا شابٌ بدين ضخم الساعدين، له خصال الثور إن غضب، ولعله اتخذ من الثيران تلك الخصال لكثرة ما تناوله من لحومها، جلس الجميع على الأرائك التي تلفّ جدران الحجرة الثلاثة، وكانت فرصةً للزائرين بأن يلتقطا أنفاسهما، أما الجزار فقد بادر بالقول:

استعجلتما المجيء يا بني، كانَ يجب أن أوافيكما على الفور بما حدث.

نظرت الفتاة إلى "يعقوب" بدهشة والذي بدوره بادلها النظرة ذاتها ثم أردفت تقول: ما لك تتكلم وكأن سخط الآلهة سيحل علينا، ما الذي حدث؟

- أرجو ألا يكون ذلك سخطا من الآلهة يا ابنتي، حدث أن "أوندال" خرج للناس وأعلن أن "يعقوب" سرق كتاب القديس ومردود حقول المعبد،

أجاب "يعقوب" بهدوء وعيناه تنظران نحو زخارف الحصير الممدود من تحته: كُنا قد توقعنا مكيدةً منه، ولكن ما الحل، أين المهرب من مصائب ذاك الوغد؟

- قد هاجمته في منتصف الساحة وعلى أعين الناس جميعا... لكنه استشهد بنص رسالةٍ وجدها في حجرتك...!

- نص رسالة؟

- أجل، رسالة من "أراس" تحدثك بها عن أمرٍ ستنال منه مالًا وفيرًا، إن أنت أتيتَ به، وما إلى ذلك حتى نهاية الرسالة، فتلك الرسالة التي أرسلتِها إليه لشيءٍ بينكما مُبهم، كانت دليلًا عليكما.

أجابت "أراس" باستنكار: عن أي رسالة يتحدث ذاك الأحمق... ما من اتفاق مثل ذلك بيني وبين "يعقوب"... عدا أن الرسائل بيننا منذ سنوات لم تطرأ لمثل هذا الذي تقول.

قال الجزار وهو يبسط كفيه: كيفَ لا... وختم العائلة موضوعًا على الرسالة، فمن المهم أن تتذكرا ما هو الشيء المقصود بالرسالة، علَّنا...

قطع "جورج" كلامه إذ وجد "أراس" هبّت واقفةً ومطّت عنقها للأمام وأخذت تزبد وهي تقول بصوت عالٍ: الختم... الختم، ذلك الوغد الأخرق.

نهض "يعقوب" لجانب "أراس" وحاله حال الجميع لم يفهم شيئًا مما قيل، وقال لها وهو يمسك بزندها: ما الأمر...؟!

- افتقدت الختم في يومنا الأول بالمغارة، فعادةً يكون بجيبي أينما ذهبت، فحسبت أنني قد نسيته في الصندوق ولم أحمله عندما وصلتني رسالة الوغد التي أخبرني بها بموت والدي، وعندما ذهبنا إلى المنزل منذ أيام بحثت عنه وكنا على عجلةٍ من أمرنا فلم أجده، ولم أعط للأمر اهتمامًا، ولكن الآن قد اتضح الأمر، يبدو أن ذلك الأخرق الأبله قد داهم بيتي وسلب الختم منه.

قال "جورج": اجلسي يا ابنتي... اجلسي وهدِّئي من روعك قليلًا.

- كيفَ تريد مني أن أهدأ، ترى الأوغاد يتلاعبون بنا ويأكلون قوتنا، ويستبيحون دماءنا وكأن من أعطاهم المُلك علينا أعطاهم الإذن لسحقنا أيضًا، ذلك يُقتل لأنه رأى، وآخر يسحق لأنه سمع، وأخرى تداس بالأقدام لكلمةٍ نطقتها أزعجت أذن السلطان، أخبرني ما الحل وسأنصاع لما تقول، لم نرتكب خطيئةً ولم نؤذِ نفسًا قط، لكن كبير الحكماء وضع احتمالًا أننا سننطق ونستبين، سنتكلم ونسأل، فانهال علينا بالمكائد والتهم، وهيهات هيهات أن نعلم عند أي حدٍ سيقف، أتدري ماذا يعني أن يكون بحوزته خِتم العائلة أي إنه يستطيع أن يُلفق لنا ما يحلو لخاطره، ويَسلب به حتى الثياب التي أرتديها، ولمن نلجأ إن كان هو الخصم والحكم!؟

شد "يعقوب" يد الفتاة لتجلس بينما قال "جورج": الخوف على النفس ومتاعها يدفع الإنسان إلى الجنون وارتكاب الحماقات، لا أخفيك يا ابنتي إن الكثير من أهل القرية قد ضاقوا ذرعًا مما ينالونه من حراس القرية، وكثر التهامس بينهم عن الجوع الذي أدمى بطونهم ورغد العيش الذي ينعم به الحكماء، قد يرى القوي الظلم حوله لا يبقي ولا يذر فلا يُحرك لردعه ساكنًا، حتى إذا ما وصل إلى بطون أطفاله ثار الوحش الكامن بنفسه وهب ينادي على العدل الغائب، خذي من كلامي وعدًا لن أخِل به: سأجمع كل مظلوم في الجبل لنصرتك في يومٍ ستتناقل أخباره الأحفاد جيلًا إثر جيل، لن تقفي وحدك في وجه ذلك الأخرق، سيكون لك عونًا من الناس يشتركون معك في البلاء ذاته، فإن أنتِ خرجت للحكيم وكشفت عنه الغطاء؛ لكِ أن تتخيلي حينها ما سيقدم عليه حرس القرية، وهيهات أن نكون ندًا لهم ونحن أفرادٌ مشتتون.

أضاف "يعقوب" وهو ينقل نظره من الفتاة إلى الجزار: أتعني أن ندفع بالقرية للتمرد على الحكماء...؟!

- ما نناله من ظلمٍ هو نتاج لخضوعنا، آن لنا أن ننهض ونرمي عن أكتافنا من اتخذها موطئًا لأقدامه، وقد أصبح في صفنا من سيكسر شوكة ذاك الوغد ويفضحُ ألاعيبه.

قال "يعقوب" والفتاة بصوتٍ واحد: من؟!

- عباس ابن "أوندال" الوحيد، إن كُنت لا تعرفينه يا "أراس" فإن "يعقوب" صديقه وهو أدرى الناس به، أتاني ليلة البارحة قبل انبلاج الفجر وهو في حالةٍ يرثى لها، وكأن بؤس العالم قد استقرَّ في عينيه، أدهشني حضوره في مثل ذاك الوقت

وعلمتُ من وجهه أنه لا يريد الكلام، فقط يُريد الملجأ الذي يريح به جسده وعقله، وبعدَ أن نال طلبه من الراحةِ وحظه من النوم طلبَ أن أرشده إلى مكان "يعقوب" أو أن أرتب لقاءً يجمع بينهما وألحّ في طلبه أيما إلحاح، حرتُ في معالجته كي يبين لي غايته من اللقاء، فأبى ولم يَبُح.

قال "يعقوب": وهل أخبرته، أينَ هو؟ أجمعني به، يجبُ أن ألتقيه قد جالَ بخاطري أنه سيساعدني حقًا وسينكرُ على أبيه الذي جرى إن سمع منا، ثم متى وصل إلى القريةِ، حسبت أنه لن يعود قبل الشتاء!

- هو عندكم في المغارة يا بني، أو أحسب أنه في طريقه للمغارة، لذلك كُنت قد سألتكما إن لقيكما أحد في طريقكما الليلةِ، لم يَمض الكثير على خروجه من هنا، انتظرَ فلول النور وانحسار الناس عن الطرقات وخرج، وأخبرني أن أباه سيرسل العيون خلفه للبحث عنه، لا أدري لمَ وما الذي جرى بينهما؟

أردفت "أراس": إن كان قد فر من أبيه وقصد لقاءنا فإن أمره ملتحمٌ بأمرنا لا ريب!

فكرتُ بهذا أيضًا، أيًا كان يا ابنتي ستعودان إلى المغارة الآن وتعلمان الأمر منه، ولكن أخبريني أولًا هل وجدتِ في مَذكرات أبيكِ ما ينفعنا؟

- لم أنتهِ من قراءتها بعد، ففي اليوم الذي تلا إقامتنا في المغارة دبت الحمى في جوانبي وأثقلت رأسي، وما زلتُ كذلك أتقلب في آلامها أيامًا متتاليةً، تابع "يعقوب" قائلًا: هي كذلك حقًا، حتى إني وددتُ أن آتي إليك علكَ تكون معينا لي في شفائها ولكن خشيتُ إن أنا تركتها وحدها أن يصبها ما ليس

في الحسبان فخرجتُ إلى الجبل وجمعتُ بعض الأعشاب التي أعلمُ نفعها في رد الحمى ومقاومتها، فحضرتُ لها بما أعلمُ شرابًا تتداوى به وتتقوى، حتى إذا ما عادت قوتها وزالت أثار الحمى من بدنها هبت للخروج إلى منزلها وكانَ لنا في ذلك شقاءٌ عظيم، واليوم ها نحنُ عند بابك.

ثم تابعت "أراس": لم أنته من قراءتها، لكني قرأت ما سيثير دهشةَ الجميع، دعني أسألك أولًا هل التقيت بالطيب إبراهيم وحدثته أو حدثك بشأننا؟

-أخبرتك أنه ليس موضع ثقةٍ لدي، والحقيقةُ أني ما طلبتُ منكما عدم المكوث في مغارة أبيك السابقةِ والخروج إلى أخرى أعلى الجبل إلا لأن إبراهيم يعلم أنكما ستقصدان مغارة أبيكِ، هل ذكره أبوكِ في مذكراته؟

- أزل تلك الشكوك من رأسك، بيد أن إبراهيم سيكون عونا لنا فيما نريد،

أنهت الفتاة كلامها عندما بدأ الطرق على باب المنزل الخارجي فشحبت وجوه الجميع، قال "يعقوب" والطرق يزداد قوة: هل تنتظر أحدًا؟!

أجاب "جورج" وهو يمسك بساطوره: لا تصدرا صوتًا.

9- المذكرة الرابعة.

خرج إبراهيم من منزلي في تلك الليلة ومضيت أنا في الأمر كما يمضي الماء في النهر، رحتُ أتنقل من مكان لمكان دون أن أخبر أحدا بما عَلمت من أمر "أوندال"، أستقصي أخباره، وأراقب أعماله، ولم ترف عيني عن رئيس الحرس الجديد، والحقيقة لم ألحظ منهما أعمالًا مريبة! وعلى العكس كانا في سكون لا نظير له، وكأنه السكون الذي يسبق العاصفة، مضى أسبوعان وأنا أحيك الخطة التي ستطيح بـ"أوندال" ورئيس الحرس دون مقاومة ومخاطرة، لم أكن أستطيع المجازفة بعزله ورئيس الحرس طوع بنانه، وإن أنا أقدمت على عزل رئيس الحرس فلا أعلم ردة فعله حينها، لذلك لم أخطُ خطوة واحدة دون دراسة وتمعّن بها، وقد مضى أكثر من أربعة عشر يوما وأنا أقلب الأمر برأسي إلى أن استهديت لما يجب أن أفعله، فاجتمعت بالحكماء الستة في المعبد كلٌ على حِدة وأخبرتهم بأن يأتوا لمنزلي عندما ينتصف الليل لأمرٍ أحتاجهم به، انقضى النهار وزحف ظلام الليل وبدأ الحكماء يتوافدون وأخذتهم الدهشة جميعًا إذ إن كلٌ منهم كان يعتقد أن الأمر خاص وأن الدعوة فردية، كان كُلُ شيءٍ محكمًا بسرية وكتمان خشيةً من أي طارئٍ يُفسد ما أودُ فعله، لم أكن على ثقةٍ تامة بالحكماء عندما دعوتهم لكن لم يكن باليد حيلة وكان إخبارهم بالأمر وإشراكهم القرار مجازفةً لا مفر منها، وبعد عناء التفكير بجميع الاحتمالات التي يمكن أن تقع والجهد لبلوغ الهدف حصل ما لا يخطر على بال بشر، وما إن اكتمل النصاب وجلست بينهم حتى بادرني أحدهم القول: ما الأمر يا سيدي إن لم يخطئ حدسي فإنه أمرٌ جلل، وإلا لمَ هذه

السريةِ في الدعوة، وإن كان اجتماعًا للحكماء فلمَ لم يكن بوضح النهار وفي مبنى الحكماء كما اعتدنا، أخبرنا يا سيدي فليس لنا على الفضول سلطةٌ.

هززت رأسي ثم قلت بصوتٍ عالٍ: ادخل علينا يا إبراهيم.

دخل إبراهيم مُسدلًا يديه أمامه ورافعًا ذقنه إلى الأعلى، أشرت إليه فجلس على الطرف الآخر للطاولةِ، وقلتُ له والحكماء ينقلون أنظارهم بين وجهينا: أعد علينا ما أخبرتني به منذ أيام، أعده كاملًا مفصلًا، بهدوء دون خوف من شيء فها نحن نصغي لك، أخذ شهيقًا وابتسم حتى ظهرت نواجذه ثم بدأ يلقي على مسامع الحضور كلامه بقوة، ويلوح بيديه يمنةً ويسرة، كان صوته يرتجف ووجهه يُظلم للحظات خلال تحدثه ثم يعود لحالته الأولى من رباطةِ الجأش، وكأن خيالاتٍ كان يُخيطها عقله تنزل عليه فتبعثُ في نفسه الخوف، يتعاركُ معها فيغلبها بجولةٍ وتقهره بجولات، انصدم الحكماء بما يسمعونه كما ينصدم حصانٌ مسرع بجدارٍ خُلق أمامه فجأةً فلا يدري الناظر إليه هل الحطام في الجدار أشد أم في الحصان، كادت عيون أحدهم أن تخرج من محلها لشدة إذعانه وتركيزه بالقائل وكلماته، وفغر آخر فاه، وابتسم آخر بخبث بينما تكتف آخر وأطرق رأسه أرضًا يفكر بما يسمع، أنهى إبراهيم كلامه وهو يقول: لن تجدوا في الحياة رجلًا أكثر صدقًا من رجُلٍ نزَعَ عن أكتافه رداء الخوف في سبيل الحق، قاتلوا في سبيل الحق تجدوا خلاصكم.

صمت الجميع وراح الحكماء يتفرسون بوجهي ينتظرون سماع ما يشفي غليلهم، فلم أطل عليهم، وقلت لهم حينها: إن الأمر واضح جلي كالثريا في السماء، والذي لا يختلف عليه اثنان هو أنه

يجب وضع حدٍ لهذه المهزلة، فلكل مخطئٍ عقاب، ولن يكون عقاب "أوندال" هينًا، وكي لا يخرج لي أحدكم ويقول يجب التأكد من صحة الأمر قبل أن نقدم على أية خطوة فإني أقول لكم: إنني تحريت من حرس القرية عن حالة رئيس الحرس قبل موته، وتحدثت مع "أوندال" أيضًا دون أن أشعره بأنه موضع شكٍ لي، فسمعت منه كلامًا فيه من الدهاء ما يُقنع الأعمى بأنه يبصر، وقد جمعتكم هذه الليلة... وإذ أردت قول ما أودُ فعله راعني صوتٌ صهيل الأحصنة، أصختُ السمع وبعد غمضة عين وانتباهتها خُلع باب المنزل من مكانه، ودخل علينا رجال أظنهم عشرة صعد منهم اثنان إلى غرفة زوجتي والفتاة وأبقيا عليهما في الأعلى، وتفرد البقية في المنزل بينما دخل علينا رئيس الحرس "سفيان" واستل حسامه برفقة "أوندال" الذي امتشق سيفًا هو الآخر ورفعه في وجوهنا وهو يُحكم باب الحجرة، وراح يقول وهو ينقل سيفه ونظراته على أجساد الجميع ووجوههم: لا يُعقل أن يجتمع الحكماء ولا أكون بينهم، وهل يعقل أن أتخلف عن اجتماعٍ لكم حتى وإن لم أدعى له، سأكون أول من يحضر، اصفرت وجنات الحاضرين وارتعدت أفئدتهم، فقاطعت ذلك الوغد حينها وقلت وأنا أقف ممسكًا بكرسيي: ستنال جزاءك أيها الوغد، لن تنال المغفرة على ما اقترفت من آثام، وهنا تقدم "سفيان" نحوي واضعًا نصل سيفه على رقبتي فرحتُ أهرب من برودة النصل حتى جلست على الكرسي وفر رأسي إلى خلف مَسنده، صرخ "أوندال" على الحاضرين كي يجلسوا، فلبّى الجميع أمره وركنوا إلى مجالسهم، بينما اتخذ هو لنفسه مجلس إبراهيم، ورفع قدميه فوق الطاولة، كان نصل السيف يشدُ على عنقي، وكأني رأيتُ

حينها أن إبراهيم انحنى لـ"أوندال" عندما جلس ولكن عندما تفكرتُ بما جرى مرةً أخرى قلتُ بأنه ضربٌ من ضروب الخيال لا أساس له، قال "أوندال": آه أخبروني لمَ هذا الاجتماع، تحدث يا كبير الحكماء، تفضلوا أيها السادة وأكملوا ما بدأتموه، تدخل أحد الحكماء وكان جالسًا على يساري يفصل بيننا زاوية الطاولة وجسد "سفيان"، وهو رجلٌ طاعن في السن لكنه كان محتفظًا ببنية جسدية قوية وقال: كان كبير الحكماء يخبرنا بأنك مجرمٌ ووغد فما صدقناه وطلبنا منه دليلًا فكان قدومك علينا أشد بيانًا من القول وحاسمًا للجدل، أراح "سفيان" سيفه عن عنقي فرحت ألتقط أنفاسي المسلوبة، وعلمت حينها أن الظالم لا يرفع سيفه عن عُنق رجل إلا ليغرسه بعنقٍ آخر، فبحركة خاطفة غرس سيفه بعنق الحكيم من الجانب الأيمن ليخرج من الجانب الآخر، راح البعض يصرخ، وآخرون نسوا كيف يخرج الكلام من الأفواه، وكنت من الناسين أيضاً، حاول الرجل تقييد رقبته بكفيه ليمنع دمه من الهروب بينما بقي السيف محاطاً بلحم الرجل ودمائه النافرة، أخذ رئيس الحرس يتفرس بوجوهنا، وكأنه يقول انظروا تمعنوا واعلموا مصيركم إن أنتم تفوهتم بكلمة تخالفنا، ثم شطر الحنجرة التي تعيق خروج سيفه من دائرة اللحم والدم، وسقط الحكيم أرضًا والدم ينفر من رقبته بين اللحظة والأخرى، ركض حكيم آخر نحو القتيل الذي ما زال يصارع بالأرض، وكأن روحه تأبى مفارقة الجسد وتأبى مفارقة الحجرة والانسحاب من هذا المكان قبل أن تنزل اللعنة على من أذاها، أخذ الحكيم يُمسك بساعد نظيره المسجى دون أن يعرف ماذا يفعل، هو بقرارة نفسه كان مدركًا أنه لا يستطيع أن يُقدم

شيئًا لصديقه، ولكن أبى إلا أن يكون بجانب من شاركه الحب والعلم لسنوات طوال، فطاوع سيف المجرم تلك الإرادة، هجم "سفيان" عليه من خلفه وحز عنقه بحركةٍ خاطفة فارتمى فوق صديقه بصورةٍ ينزفُ العقل لذكراها،

مرت دقائق سكنت الأجساد بها بعد صراع الحياة والموت، وعم هدير الصدور الخائفة، ليس هناك وحشٌ أشدُ فتكًا من الإنسان، كم وددت بتلك اللحظة أن أخرج للعالم فأقول لهم: لا تكونوا وحوشًا حافظوا على ذاك الإنسان الخيّر بداخلكم، الذي خلقتم لتعيشوا به، في العالم ما يكفي من الحيوانات خلقوا دون قدرة على التمييز بين الخير والشر فلا تشاركوهم ما خلقوا عليه، راح العرق يتفصد من جبيني وكأن قطراته اشتمت رائحة الدماء الزكية التي تلطخ بها فهرولت مسرعةً لتحتضنها من كل صوب.

تغيرت ملامح "أوندال"، كان له وجه آخر لم آلفه قبل تلك الليلة، وجه انغمس بالخسة فتكحلت عيناه بسواد الظلم واحمرت وجنتاه بالدماء التي سفكت بأمره، و"سفيان" كذلك، للظالمين ملامح وقلوب متشابهة، هذا ما خطر لذهني وأنا أجول بنظري بينهما، قال "أوندال" بهدوءٍ الخائِف الذي يقاوم خوفه وهو ينظرُ للجسدين الصامتين: كم أحزنُ على تلك الحالة التي ساقا نفسيهما إليها، لمَ الثرثرة؟! ألم يعلما أن الثرثرة تودي بصاحبها إلى التهلكة، والصمت رفيق السلام لا يفارقه أبدًا! ثم نظر إلى "سفيان" وأخذ يقول: سلمت يداك يا "سفيان"، سلمت يداك يا عزيزي، كم سيفخر أبناء قريتنا بك ويتراقصون فرحًا لما حققت في أيامك الأولى من تولي رئاسة الحرس، سيحزنون في البداية نعم لا شك بذلك،

سيحزنون عندما يعلمون أن كبير الحكماء خان الأمانة التي على عاتقه، سيثور الغضب بصدورهم عندما نُخبرهم أنه أراد المتاجرة بمقدساتهم، ثم التفت "أوندال" نحوي وتابع وهو يُدني جسده باتجاهي: أيعقل يا رجل أن تتاجر بكتاب القديس، ألهذا الحد بلغت من الجشع، أشكر الآلهة على أنني علمت بالأمر قبل فوات الأوان فأتيتُ برفقة هؤلاء الحكماء و"سفيان" البطل لنحول بينك وبين إتمام الأمر، فغر الحكماء أفواههم وقد أدركوا ما يرمي إليه "أوندال"، كان صمت الأفواه وتقاطع النظرات وهلع القلوب اللغة التي نتحدث بها، لم يجرؤ منا أحدٌ على الكلام ولطالما كان الرجل منا يفاخر بقوته وثباته ويتغنى بعدم خشيته الموت، وما إن يحضُرَ شبح الموت حتى تجد الشجاع خوارًا والصلب رخوًا والخطيب أبكما، هو الإنسان منذ الأزل ليس بوسعه أن يتخلى عن حبه للحياة حتى وإن كانت حياته بائسة محفوفة بالشقاء والكمد، رَفع "أوندال" سيفه وهو ينهض عن كرسيه وصرخ قائلًا: لم يبق مكان للمحاباة أيها الأوغاد انظروا أمامكم إلى تلك الأجساد النتنة، اتعظوا منها واشكروا الآلهة إذ مازلتم أحياءً، أقولها لكم وبصراحةٍ لا نظير لها: لن تطول حياة الذي يعترضني منكم أكثر من الوقت الذي يستغرقه سيفي لقطع المسافة بينه وبين أعناقكم.

10- من الضعفاء تستمدُ الحقيقة قوة الظهور، ومن أجسادهم الجائعة تتخذ جسرًا للعبور.

زادَ الطرْق على الباب وتسلل صوتٌ صهيل الأحصنة من أول الزقاق إلى الأذان فعلم "جورج" وزواره أن حرس القرية خلف هذه الجلبة، فهم للخروج وهم معه إلى ساحة المنزل وراح صوتٌ الأوز يرتفع بارتفاع صوت الأجساد التي ترتطم بالباب لخلعه، تلفت "جورج" يمنةً ويسرة، حتى قال "يعقوب" بصوتٍ لاهث وهو يشير بيده إلى جدار مرتفع يحد الساحة من الخلف: اتبعيني...

ربّت "جورج" على كتف الفتاة فركضت باتجاه الجدار وإذ إنه يشقُ على المرء تسلقه دون مساعدة، شبك "يعقوب" كفيه فوضعت الفتاة قدمها عليهما وارتقت بالثانية كتف "يعقوب" حتى بلغت أعلى الجدار وبهذه الأثناء سقط عدد من الحرس في ساحة المنزل من الجدار المقابل وما إن وطئت قدم أحد أفراد الحرس أرض الساحة حتى مد ذراعه وفتح الباب لصحبته، خاف "يعقوب" إذ رآهم يتجهون نحوه وكان لقمان قد هيأ جسده وصنع من كفيه درجة ليساعده في تسلق الجدار واللحاق بالفتاة، وإذ رفعَ قدمه اليمنى على كفيّ لقمان وعيناه شاخصةً نحو الحرس، انقضّ عليه أحدهم وأرداه أرضًا، كانت "أراس" ما تزال على حافة الجدار، وعيناها تتخبطان مثل كرة تتقاذفها الأرجل لتعي ما يحدُث من تحتها ولبرهةٍ اكتملت لديها الصورة، ساحة المنزل يتوافدُ الحرس إليها كماءٍ انفجر سدهُ، ولقمان يصرخ على "يعقوب" بينما جمد "جورج" مكانه بعد أن ضربه أحد الحرس وانتزع منه ساطوره، ولمحت عددا من الجنود يرمونها بنظراتهم وهم عند الباب قبل أن يلتفوا ويركضوا نحو أحصنتهم في الزقاق، فعلمت أنهم يقصدون الالتفاف عليها،

نظرت نحو "يعقوب" وقد طرح أرضا، فراح يصرخ ويلوحُ في يده التي فلتت من قبضة الجنود فوقه: امض في سبيلك ... امض في سبيلك، هل تتركه وحيداً ليلقى مصيره منفرداً دونها، وما نفع الصحبة إن تخلى الصاحب عن صاحبه في لحظات الضعف والعِوز، منذ ساعاتٍ كان حديثهما تحفُّه وعود الحُب والبذل، فهل تترك محبوبها تحتَ أقدام العميان لتدهسه، إن بقي بين أيديهم فليس بينه وبين أجله سوى نصل السيف، لو لم أظهر أمامه لما حل به شيءٌ من ذاك، كانت نفسها تحدثها بذلك بينما مدت جسدها الهزيل على ارتفاع الوجه الآخر للجدار ثم أفلتت يداها لتستقبلها أرض الحقل اللينة، وخلال لحظات أطلقت قدميها للرياح واختفت بين ثمار الذرة وتحت سواد الليل.

تحركَ "جورج" من مكانه وأخذ يُمسك بالجنود الذين انهالوا بالضرب على "يعقوب" بأيدهم وأرجلهم وبالسيوف المغمدة، خمسة رجالٍ يُفرغون ما تراكم من حقدٍ في نفوسهمِ على جسدٍ هزيل ليشبعوا لذة الوجود لديهم، راحَ يصرخ في الثواني الأولى، واللكمات وابلٌ عليه ثم خانته العبرات وراح الأنينُ ينبعثُ من كُل موضعٍ بجسده، وكأن كُل عضوٍ لديه وكُل قطعة جلدٍ مُزرق استحال إلى فمٍ دون لسان؛ يطلقُ أنّات لا يفهمها إلا من مرّ بها، استطاع "جورج" أن يَقذف أحد الرجال بعيداً عن الشاب وطرحه أرضا فهاجَ من بقي من الجنود بالخلف وطالت أيديهم حتى أمسكوا بالرجل وضموه إلى صاحبه واشتدت عاصفة البطش والفتك، هاج لقمان لرؤية أبيه يتقلبُ فوق التراب من ألمه، والجنود منتشرةً بالساحة كالنحل بخليته، ركض إلى زاوية الساحة وعيون بعض الجنود تلاحقه وأمسك منجلا كان مسنداً إلى الجدار وبسرعته ذاتها عاد كالنسر

الطائر إلى فريسته رفع منجله ومقصده رأس أحد الجنود، لم يكُن يريد إبعاده فحسب إنما يُريد روحه، يريدُ أن ينال روحًا إزاء كُل لكمةٍ نالها أبوه، كان الجيران قد استيقظوا وتهافتوا إلى مصدر تلك الجلبة الدائرة وأخذوا يسترقون النظر إلى ما يجري داخل المنزل من عتبة الباب.

رفع الشاب منجله إلى السماء عاليًا وارتفعت روحه قبل أن ينزله على رأس عدوه، غرس قائد مجموعة الحرس سيفه بظهر الشاب فهوى والمنجل أرضًا، صمت المكان بمن فيه، فأشار قائد المجموعة واسمه سليم وهو رجلٌ طويل أمرد دميم الخلقة دنيء الخلق، لجنوده بأخذ "يعقوب" والانسحاب، فتراكضت أيدي الجنود لحمل الشاب وقد فقد وعيه واختلط احمرار جسده باحمرار دمائه، وخرجوا من المكان وعيونهم معلقةً بجسدِ الأب وابنه، كان "جورج" يجاهدُ نفسه كي لا يَفقد الوعي، زال منه كُل ألمٍ كابده منذ ولد، وكأن الألم قد خجل من البقاء فأفسح الطريق وأخلى النفس لينزل بها الألم الأعظم، ألمُ الفقد، لم يَعرف الإنسان ألمًا أعظم من الفقد، فقد الأب لابنه، إنه ألمٌ يُهتك النفس، يجعلها هشةً كورقةٍ يابسةٍ تذروها الرياح، تخفتُ ألوان الحياة عند حلوله وتزول فلا يبقى منها إلا الأسود المُظلم، يُخفف البكاء وطأة الحزن على النفوس، أما الدموع التي تذرف على موت الابن وفقده تكون كالوقود فلا تزيد النفس إلا لهيبًا وتوقدًا، ولا تجف إلا والنفس من بعدها رمادًا يتطاير.

ركض الجيران إلى الداخل نساءً ورجالًا، أطلقت الجارات أصواتهن للصراخ وكأنهن ينتظرن عزاءً للنواح به ومأتمه يجزلن

بها الدموع، صراخٌ زلزل القريةَ واهتزت له أشجار السنديان الباسقةَ وقلوب العصافير الغضةَ صاحبَ الشبان وهم يرفعون جسد لقمان وقد لفظ آخر أنفاسه ليدخلوه المنزل فيقضي به ليلته الأخيرة، مددوه على الأريكةَ التي كان يشغلها منذُ قليل، ودمه يتسربُ من تحت قميصه ليضع أثرًا على كُل شبرٍ مر منه، وكأنه يقول: دعوني ألتصق بهذا التراب وأغير ألوان الحصير الذي تطؤونه بأقدامكم، دعوني هنا على تلك الأرائك أنعم بالراحةَ الأبديةَ خذوني لأتقاطر على طرقاتِ القريةَ شبرًا شبرًا أمام الجنود المتكبرين، والأطفال السُّذج في ساحتها العطرة، وداخل المعبد حيثُ المُقدسون، فأقدم لذلك الجسد الذي غادرته منفعةٌ هي الأعظم وإن كانت الأخيرة فكُل ما يرجوه ذاك الميت أن لا يُنسى بعد أن يُغلفه التراب، تقدم "جورج" بخطى ثابتةَ، صمتت النساء والتف الشبان حوله يرقبون ما سيفعل إزاء ما يرى في لحظةَ تخرّ عندها الجبابرة ويَضعف لها كُل شديد، وقف عند الباب ينظر لابنه عاقدًا حاجبيه لا يُسمع منه سوى صرير أسنانه، مرت به السنوات التي صنعت من ابنه رجلًا، مر بولادته إلى أن مشى، تذكر ميتةَ زوجته لتحمله دور الأم إلى جوار أبويته، تذكر أول مرةٍ ناداه فيها يا أبي ونطقت شفتاه الرطبتان بحروف اسمه، دارت به الذكريات إلى أن علمه الذبح واشتد عوده وأصبح سندًا يعينه في دكانه، سنوات عديدة ارتسمت بين عينيه بلحظات، مر أحد الجيران من جانبه وربت على كتفه بحنان لمواساته، فهبط برأسه على الجدار كصخرةٍ هبطت من السماء على أرضٍ صلبةَ حتى خُيّلَ للرائي أن الجدار سينقض، وراح يصرخ باكيًا

بأعلا صوته: ولدي ...ولدي ... قم ولا تكن أول من يكسر ظهري.

وكأن تلك الربتة الحانية كانت إيذانًا لإشهار حزنه، وكأنه قد شد الوثاق على نفسه كي لا تضعف وأخذ عليها المواثيق بأن تبقى غليظة شديدة مهما نزل بها من النوازل أو أصابها من المصائب، فقطعت تلك الربتة الحانية ذاك الوثاق المحكم، ونقضت المواثيق المبذولة، فظهر رجلًا مكسورًا ذا نفسٍ جريحة لم يبق من صلابته أكثر مما بقي من صلابة غصن شجرة يابسة نخر السوس داخله، واستمر بالنواح وفقد اتزانه فراح يترنح يمنة ويسرة والرجال حوله يشيعونه بدموعهم، واستأنفت النساء نزف الدموع وغزل الآهات تلوُّعًا على ذاك الشيخ البائس المسكين، فكأنه كَبر بتلك اللحظات حتى بلغ أرذل العُمر.

تجاوزت "أراس" حقل المعبد وأفضت إلى الطريق الذي سيوصلها إلى سفح الجبل، انتشر حرس القرية في أصقاع الجبل وعلى طرقات القرية وحقولها بحثًا عنها، إلا أن سواد الليل كان عطوفًا فحماها تحت ردائه، وكأن الغيوم في السماء قد أشفقت على حالها فراحت تتشابك ببعضها البعض لتمنع ضوء الهلال من الوصول لها، استمرت بالجري حتى بلغت شجرة التوت التي استضافتها عند نزولها الجبل و"يعقوب"، فصعدت عليها تلتقط أنفاسها، وأسندت رأسها إلى غصن الشجرة من خلفها ومدت قدميها على الجذع الممتد من تحتها، وحدها أصوات الليل كانت ترافق صوت أنفاسها اللاهثة، بدأ عقلها يعود أدراجه بعد أن فر من الخوف، وهي كذلك إذ فاجأتها دموعٌ انفجرت من مقلتيها وراحت تنهمرُ واحدةً تلو الأخرى وتقطر من ذقنها، وهي ساكنة

لا يُسمع لها صوتٌ ولا يرمش لها جفن، لم تكن دموع حُزن وكمد، بل دموع عدم الحول وفقدان الحيلة، ليس هناك طريقةً تعلمها بما حدثَ في بيت الجزار بعد خروجها، "يعقوب" وما آل إليه حاله أصبح سوطًا يجلدُ ظهرها، راودها الندم على وجودها في حياته، كأنها السبب الوحيد لما حلّ به، الندم ضيفُ وقح لا يسعه إلا أن يجلدَ مُضيفه.

استأنفت سيرها وعيناها ماطرة، وهي تتلفتُ خلفها مع كل خطوة تخطوها، علَّها تجدُ ذاك الشاب الذي تحب وقد لحق بها، علّها تلحظُ خيالًا له يُطمئنها عليه، أو تسمع له همسا عذبًا يناديها بأن تنتظر، ولكن أنى لمن قيدته السلاسل أن يمضي نحو من يُحب ويطأ الأرض التي يهوى ويلتقي بمن يؤنسه لقاؤه، ففي تلك الأثناء فتح "يعقوب" عينيه لثوان قِصار لفَّ بهما أكناف الزنزانة التي حوته، وإذ لم يلحظ سوى الظلام الذي كفنه وخيوط من نور تسللت من تحت شق الباب، أغمض عينيه ثانيةً وهو مُلقى على صدره فوق أرضٍ مُبللة وراح يرسُم المشهد في خياله ليكون صورةً للحالة التي صار إليها، أرض مُوحلة اختلط ترابها بماء لم يعرف أصله، تسارعت إلى أنفه رائحتها التي تكادُ تشبه رائحة كلبٍ ميت رمي تحت شمسٍ حارقة، غبشت الرائحة على عقله فحاول أن يرفع يده اليمنى ليسند جسمه ويعينه على الجلوس ولكن الألم كان أقوى من إرادته فأراح جسده على التراب الذي تحته حتى امتزجا فكأنه من التراب وكأن التراب قد منه وأخذ يقول لنفسه: إن أنا نهضتُ وأبعدت أنفي عن مصدر الرائحة هل سأفلتُ منها، لا أظن ذلك، فقد قدر لها أن تسكُن المكان وما أنا سوى زائر استباح حماها عنوةً.

مَضى عليه بعض الوقت وهو مُغمضٌ عينيه خوفًا من مجهول المكان والمستقبل، وكأنه حَسِب أن السكون سيبقيه في مأمن من فوضى القادم وصدمة المجهول فراح يُجاهدُ نفسه لتقتحم ما صارت إليه بقوة، فيفتحُ عينيه ليسترق النظر حوله فلا يُجبه سوى الظلام وأصواتٍ من البعيد المُبهم تتسارع همسًا إلى أذنيه، أعانته ذراعاه أخيرًا على النهوض وأخذ يتحسس الأرض بكفيه طولًا وعرضًا، جاثيًا على رُكبتيه حتى علم ما تحتويه الغرفة الخالية، فراغٌ فقط له أرضية نتنة تفوح منها رائحة تنمُ عما بها تضيقُ بنفسها ذرعًا فلا تجدُ منفذًا للخروج سوى ذاكَ الباب المحكم بين لحظتي فتحه وإغلاقه، وأربعة جدرانٍ خشنة تجولُ عليها العناكب مطمئنة كما تجولُ الماعزُ فوق الجبال الوعرة، استند إلى الجدار وراحت أصابعه تجول على مواضع الجروح والكدمات بجسده برفقٍ يُهيجُ بها الألم، فكف عن ذلك بعد أن فشل بإحصائها وآثر أن تبقى ألمًا واحدًا مُجتمعا لا تعرف علته ولا يحدُّه موضع على أن يفرقها فتكون آلامًا شتى معلومة الموضع مُتباينة الحدة، خرقَ الصمتُ تمتمات الجنود وسمع وقع أقدامٍ تزدادُ اقترابًا إليه حتى بلغت باب الزنزانة، للحظاتٍ جال بخاطره العديدُ من الأسئلة، هل هو "أوندال" أم قائد الحرس جاءَ ليكمل مهمته الناقصة، أم لعلهم الجنود يريدون سَوْقه إلى الحقل...؟ وتوالت الأسئلة على عقله حتى فتح الباب وولج إليه الطبيب إبراهيم، ولم يبدُ منه للوهلة الأولى سوى رأسه الأصلع لمعت عليه قطرات العرق بفعلِ النور من خلفه، دنا من "يعقوب" وقد بدأت ملامح الاشمئزاز ترتسم على وجهه وأخذ يقول بصوتٍ خافت: لا بأسَ عليكَ يا بُني لا بأس عليك، آهٍ ما أشقاك... ما الذي دفعك للقدوم الآن وأين

اختفيت كل ذاك الوقت...؟ بحثتُ عنكَ في مغارة الحكيم المعزول فلم أجدك هناك، أهكذا تحجبُ نفسك عمن مد إليك يد العون!؟ ليس المقام مناسبًا للعتاب الآن، أعلمُ هذا، ولكن لساني يأبى أن يخفي ما في نفسي!

أخفض "يعقوب" رأسه ثم قال: وها قد ساقني القدر إليك...

- لماذا تقولها بائسًا وكأن نهايتك قد حانت، أهكذا أصبح الرجلُ منا يخرّ باكيًا ويلوح برايات الاستسلام عند أول عارض يعترضه؟

- بيدك خلاصي مما نسبَ لي، أعلم أنك لن تدعني منفردًا وحيدًا.

- آهٍ يا بني الأحمق ما الذي أتى بكَ إلى القريةِ وها أنت تعلمُ ما لفق لك؟! خلتُ للوهلةِ الأولى أنك لم تعلم بعد، وحاولت مرارًا أن أصل إليك أو للفتاة كي أحميكما ولم أستطع.

- القدر...!

- يمشي الإنسان إلى الهاويةِ فإن نجا قال هذا من صنع يدي، وإن شارفَ على الهلاك قال هذا من صنع القدر، يبدو أنها ليست المرة الأولى التي تأتي بها للقريةِ ولكن ما الذي دفع "جورج" لمزاحمةِ المخاطر لأجلك، أما كنت لتتعقل!؟

- يبحثُ الوحيد عن ظلٍ يأنس به، كذلك يبحثُ المظلوم عن ظلٍ ينصره، أخبرني كيفَ حاله، هل رأيته؟ لا أذكُر شيئًا مما كان إلا صراخ الجنود وصوت هِراواتهم وهي تحتك بالريح في طريقها لجسدي وبعد ذلك وجدتُ نفسي هنا، هل ساقوه إلى هنا أيضًا و"أراس" هل عندكَ خبرٌ عنها؟؟؟؟

- الجزار بأحسن حال، لا تخشى عليه ولكن "أراس" تلك المسكينة كيفَ سيكون حالها وحيدةً بتلك القفار؟! ومع ذلك يبقى حالها أحسن من حالك هنا.

- وحدك والحكيم صادق اللذان تعلمان حقيقة الأمر، وبأنني ما خرجت من القرية إلا بعدما أخبرتماني أن كبير الحكماء يريد قتلي.

- قولك هذا يا بُني سيودي بي وبالحكيم صادق أيضًا فلا تعيده مرةً أخرى فإنه لن ينفعك أكثر مما سيضرنا، وكيف للعين أن تقاوم المِخرَز.

- ماذا تعني!!!

- هل من أحدٍ يعلم الذي جرى بيننا غيركما أنت و"أراس"؟

- الجزار "جورج" فقط... أعنّي على الخروج من هنا أيها الحكيم ولن تكون وحدك في مواجهة كبير الحكماء.

قال إبراهيم وكأنه عثر على كنزه المفقود: وبمن أستعين يا بني، بتلك الفتاة الضعيفة التي لا أعلمُ في أي أرضٍ ستكون الآن؟

- لا يغرُك ضعفها فعندها ما يغنيك عن مائة رجل، كُنا قد عقدنا العزم على جمع أهل القرية وبعض من نالهم الأذى من أهل قرى الجبل لنصرتنا على كبير الحكماء، وكان الرأي بأن نستعين بمن نثقُ بهم من الحكماء مثلك أنت والحكيم صادق.

ابتسم إبراهيم ولمعت أسنانه في الظلام كخيطِ النور في السماء المظلمة، وانحنى إلى "يعقوب" ليسمع همسه ويعيه جيداً بينما تابع "يعقوب" قائلًا: وقد عثرنا على مُذكراتٍ لكبير الحكماء أظنها ستكون عونا لنا في إتمام الأمر.

انحسرت البسمة عن شفاه الطيب وقطَّبَ حاجبيه وهو يسأل: أي مُذكرات؟

- مذكرات وجدناها في مغارة الحكيم المعزول.

- وهل بها ما سينفعنا حقًا؟

- لم أقرأها ... لكن الذي أريدُ قوله الآن: إنكم وإن استطعتم إشهار السيف في وجه كبير الحكماء فإن ذلك قد يحتاج وقتا طويلًا ليحين وقته،

استنشق "يعقوب" الهواء بجوع وتابع وشفتاه تختلجان: وإلى ذلك الوقت... لا أعلم ما أقول، ولكنك تعلم أن "أوندال" سيقتص مني لحظة رؤيتي، فما هي إلا ليلة وضحاها ويسلبني حياتي.

هز إبراهيم رأسه وهو يمرر أصابعه على ذقنه الملساء بينما تابع "يعقوب" قوله دالًا على المكان الذي يؤي "أراس" وما إن انتهى حتى استدار الطيب نحو باب الزنزانة وخرج منها بخطى ثقيلة هادئة، و"يعقوب" يشيعه بعينيه اللتين بقيتا معلقتين بأهداب النور المارة خلف الباب المفتوح، كأنهما عينا عاشقٍ يسترقُ النظرَ لمحبوبته، وما إن مضت بضعُ دقائق حتى دخل جسدُ قائد المجموعة سليم الذي حال بين عيون العاشق ومحبوبته، تماما مثلما حال بين الهواء ورئتي "يعقوب" بعد ذلك ليتركه جثةً صارخة في هدوء المكان وفوضى الزمان تقول: نحن أنصار الحقيقة المسلوبة، نبذلُ في سبيلها الروح وبقايا الجسد.

من الضعفاء تستمدُ الحقيقة قوة الظهور، ومن أجسادهم الجائعة تتخذُ جسرًا للعبور، ولن تصل إلى عنان السماء لتكون منارةً للشعوب إلا إذا صعدت على آلاف الأجساد وصحبتها آلاف

الأرواح تحفها من كل جانب وتحميها من عيون اللصوص وأيدي العابثين.

كذلك خرج الطيب إبراهيم من الزنزانة وأودع أمره وثمرة قلبه الخائف في إذن قائد المجموعة ومضى بعيداً وهو يقول لنفسه: ذاك المجدُ الذي نسعى إليه يأبى أن نبلغه بأيادٍ بيضاء نظيفة.

11-المذكرة الخامسة.

• وفي يومٍ شمسه صالية وحره يذيب النفوس تلا المجزرة التي وقعت في منزلي ساقني حرس القرية بعربةٍ يجرها فرسان، والفرسان من حولي ترمح على خيولها بعدد يصعب إحصاؤه، أنزلني الجنود قبل أن نصل الساحة، كانوا قد وضعوا الأصفاد حول عنقي وفي أقدامي ويدي، التفوا حولي ودخلنا ساحة القرية التي احتوت على جمعٍ كبير من الناس لم أر مثله في حياتي قط، مشى الفرسان على خيولهم بالمقدمة بينما كُنت أسير خلفهم محاطًا بفرسانٍ مترجلين، أما الحكماء الذين بقوا على قيد الحياة فقد خرجوا من المنزل برفقة الجثتين عند بلوغ الفجر، دخلنا بموكبٍ مهيب شق طريقه بين الجمع الغفير وإنهال البعض عليّ بالشتائم، رأيت بعيون البعض نظرات الشفقة والعطف، اشتركت جميع العيون حينها بنظرات الغضب، بعضها كانت غاضبة لأجلي وأخرى غاضبة عليّ، أخذ الناس بالصراخ والتدافع بينما كان الفرسان يحولون بينهم وبين وصولهم إليّ، إلى أن بلغت حيثُ وقف "أوندال" والحكماء من خلفه، التف

الفرسان حولنا بدائرةٍ واسعة ضاق بها صدري، لم أكن أعلم ما الذي سيلاقيني، إذ إنني أدركتُ من كلام "أوندال" في الليلة المنصرمة أنني سارق وخائن، أما مصيري بعد ذلك كان مبهماً، كان يراودني أملٌ بالخلاص من هذا كله، وأن نوراً سينبلجُ من مكانٍ ما فيزيل سواد دنياي الحالك، الغريق يتشبث بقشةٍ والبائس يتشبثُ بالأمل، ليس غباءً منهما، لكنه أقصى ما يستطيعان بلوغه، سكت الجمع وحط على رؤوسهم الطير إذ بدأ "أوندال" يقول: أنصتوا... أنصتوا لتعلموا لمَ كبير الحكماء والولي عليكم استحال أمره إلى هذا الموقف المُشين، لقد سمعتم من الأمر أقوالًا فالتبس عليكم وتهتم عن الحقيقة فاستلموا القول الذي فيه بيان الأمر وفصل الخطاب.

أيها السادة: منذ أيام مضت رأيت كبير الحكماء هذا الماثل أمامكم خارجًا من الحجرة التي تضم النصوص المقدسة في مبنى المعبد، وكما تعلمون فقد حُظر على عامة الناس دخولها حفاظًا على ما فيها من صُحفٍ فريدة وكتبٍ مقدسة، فلا يدخلها سوى الحكماء بعد أن ينالوا الإذن من كبيرهم، فتقدمتُ نحوه لألقي عليه التحية وأسأله إن كان له حاجةً فأقضيها، فرأيتُ وجهه شاحبًا يعتريه التوتر، ابتسم لي وحاول أن يُطلق لسانه للكلام، كان واضحًا أيها السادة أنه يريد الهروب من التوتر الذي سيطر عليه بالتحدث عن أي شيء، دهشت للحالة التي كان عليها لكني لم أول الأمر اهتمامًا في تلك اللحظات فحييته وهممت بالمغادرة، وشاءت الآلهة أن أرى أنه يخفي كتاب القديس تحت ثوبه وأنا أمضي في سبيلي، شككت أن في الأمر خطبًا ما، كيف لا وهذا كبير الحكماء على وجهه من القلق ما يجذبُ نظر الطفل، وقد أخفى

أعظم ما نملك تحت ثوبه وخرج به من المعبد، وقد حُظر على الحكماء أن يخرجوا صحيفةً واحدة خارج الحجرة.
كان الجمع منصتًا يلتقط كلمات "أوندال" بعناية وشوق الذي تابع قائلًا بثقة حتى كدت أن أصدقه: زاد فضولي لأعرف مصدر الأمر ونهايته، فترصدت لكبير الحكماء وراقبته كما تراقب اللبؤة فريستها، وصح ما كنت أقوله دومًا، إن الفضول يودي إلى المعرفة والمعرفة تودي إلى الشقاء، وشقاء العارفين خيرٌ من شقاء الجهلة، زاد التباس الأمر عليّ وبدأت الشكوك تراودني والتساؤلات تجول في عقلي، وإذ إن الجميع يعلم أن هناك خلافًا بيننا وبين المعبد في الجبل الشرقي حول أحقية الاحتفاظ بكتاب القديس، ولطالما كادوا لنا كي يحصلوا عليه ولم يستطيعوا، وما خِفته وشككت به قد حصل فعلًا، كُنت أدفع هذه الأفكار عني وأقول لها: لا... إنه رجلٌ صالح ومخلص إلى أبناء قومه، حتى رأيتُ اثنين من الحكماء ليلة البارحة يأخذان فرسين من اسطبل المعبد، وأخبرني أحدهما بعد أن تحدثتُ معه قليلًا أنهما ذاهبان إلى منزل كبير الحكماء وسيخرجان في طريق السفر بعد ذلك، لم يُفصحا عن وجهتهما، وكان من المريب أيضًا أن يخرج حكيم من الحكماء لوحده دون أن يعلم البقية غايته ومستقره، فعلمت أن الأمر لا يُسكت عنه، وأن في السكوت وإغماض الأعين عما يجري خيانة لأهل قريتي ولمقدساتنا، وعندها أيها السادة هرولتُ إلى رئيس الحرس في مقره، هذا الرجل المقدام الشجاع "سفيان"، وبعدَ أن أخبرتهُ بما جرى أرسلنا للحكماء كي يلحقوا بي إلى منزل كبير الحكماء وخرجَ هو إلى الطريق كي يلحق الحكماء المغادرين، وبمشيئة الآلهة استطاع أن

يمسك بأولئك الخونة الأوغاد وبعد مقاومةٍ منهما ورفضهما تسليم كتاب القديس جرى عراك بينهما وبين "سفيان" وجنوده، وقد لقيا حتفهما على أثره.

صاح بعض الشبان والنسوة بصوتٍ واحد: المجد لرئيس الحرس المجد لحامي المقدسات، وبقوا يكررون مقولتهم هذه حتى أشار "أوندال" لهما بيده فصمتوا ثم تابع قائلًا: لحق بنا ذاك البطل "سفيان" إلى منزل كبير الحكماء كُنت حينها برفقة هؤلاء الحكماء الشرفاء نحاول إقناع كبير الحكماء بأن يعود إلى رشده ويعترف بما أراد أن يفعل إلى أن دخل علينا "سفيان" وأخبرنا بأن أحد الحكماء قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أخبره بأن كتاب القديس كان سيصل إلى الجبل الشرقي بعد اتفاقٍ أجراه كبير الحكماء مع بعض السماسرة، وهم بدورهم سيفاوضون المعبد لبيعهم إياه،

كانت الشمس تشتد غيظًا، والجروح التي أخلفها اعتداء "سفيان" على وجهي تنزف دمًا، ألمٌ انبعث من أعماقي ليفتك بكل موضع في جسدي، أصابني الدوار وأنا أبحثُ في وجوه الناس عن نظرة شفقة أسلي بها نفسي، لم أستطع أن أجد طريقًا أسير به مع ما يُلفق لي، نظرتٌ في وجوه الحكماء من خلفي، عض أحدهم على شفته السفلى، بينما أشار الآخر بيده لي أن أهدأ وآخر اختلس نظرة لي بطرف عينه حذار أن يلاحظه أحد، كانوا جميعا خائفين وفهمت أنهم يقولون لي: ارضخ لما وقع عليك الآن، فليس لنا ولك ثقبٌ نهرب منه، استمرَ "أوندال" بالتحدُث ولم أع ما يقول إذ جال بخاطري طيف عائلتي فشعرت لدقائق وكأني انتشلت من موقع الحدث ورحت برفقتهم، استعدت صراخ ابنتي ونوح زوجتي والحرس يسوقونني من

المنزل، هل يخفف البكاء على المظلوم عناءه، لو كان يُجدي لبكينا حتى لا يبقى مظلوم على وجه البسيطة، ولكن أنى للدموع أن تعيد للمظلوم حقه وأنى للكلمات أن تشفي غليله وتخمد ناره، أين هما وأي جدران احتضنتهما...؟ عُدت إلى رشدي وبعض الجمع يصرخون ملء أفواههم: المجد لرئيس الحرس ... المجد للحكماء.

أولئك الحالمون المساكين، أرثي لحالهم، أرثي لأعناقهم التي جلبوا الأصفاد لها بأيديهم، يُمجدون الرجل عند شروق الشمس ويصلبونه عند أفولها! دون وعيٍ ومعرفة، هو الجهل لا ريب سبب كُل داءٍ ورذيلة يجلبُ الهمّ على صاحبه فيفقر جيبه ويحطّ من قدره ويُسقم معيشته، يُتيح للظالم أن يُزين ظلمه فيظهره كفاتنةٍ تنسدل عليها الفضيلة، وحدهم العارفون الذين يسبرون أغوارها فلا يخدعهم الزيف ولا تسيرهم الكلمات، وأنى لهؤلاء البسطاء المساكين أن يدركوا الوجه الحقيقي لـ"أوندال".

استمر الجمع بالصراخ وأخذ بعض الأطفال يرمونني بقاذوراتٍ وحصى التقفوها من على الأرض تحت أرجلهم، كُنت أمامهم مثل صيدٍ ثابت يقتنصونه دون خوفٍ من فراره، فراح كتفي الأيمن يحضنُ وجنتي إشفاقًا عليها ويداي مقيدتان أمامي فتنال الحصى من وجنتي الأخرى، لمحت بعض الشبان يركضون نحو الفتية ليمنعوهم ما بدأوا به، ثم ما لبثوا أن انصرفوا عنهم، لعل "أوندال" رماهم بنظرةٍ مؤنبة فانتصر الخوف على الإنسان بداخلهم، تسللت لوجنتي بسمة ساخرة لا أدري كيف وصلتني

في زحام الآلام التي أكابدها، رُحت أقول لنفسي ساخرا من كُل شيءٍ كان وغير حافلٍ بما يكون: البارحة كُنت بينهم يلتمسون رضا الآلهة من بين أذرعي، لم أظلم منهم أحداً، أو على الأقل هذا الذي كُنت أظنه بقرارة نفسي، لم أترك باباً للخير فيهم إلا طرقته ولا طريقاً لمنفعتهم إلا سلكته ولم أحفل بجهدٍ ومشقة في سبيل منفعتهم، أتمنى لو أنهم ينقلبون على الشر بسرعة انقلابهم على الخير، ليت الناس تقنع بأن أسوأ الخير ما كان الباطل طريقاً لبلوغه.

علا صوت "أوندال" فانخفض ضجيجُ الناس وعاد الهدوء للمكان، استجمعتُ نفسي وأنا أقف على ركبتي بعد أن ضربني أحد الحرس من خلفي لآخر أرضاً فتعلوا بذلك هامته على هامتي، وكأن بذلك نصرٌ له وعزٌ لسيده الجديد، جمعت بصدري قدر ما أستطيع من هواء وأنا أتأهب للحكم الذي سيحكم عليّ، رأيت بعض الطلبة حينها قد فغرن أفواههم، وبعض النساء قد اشرأبت أعناقهنَ، كانوا متلهفين لسماع الحكم وتواقين لخلاصي كتوْقي لسَحْق "أوندال"، الذين لامس النور قلوبهم لن تضرهم ظلمة الأقوال وجور الأحكام، فتح "أوندال" يديه وقال والناس تحت كفيه:

أيها الناس ... أيها الناس...

لا يخفى على ذي عقلٍ أن هذا الرجل إمعة خائن، كان منه ما علمتموه، وما جزاء من يفعل مثل فعله إلا الموت والتنكيل، كما صار لصاحبيه إذ امتنعا وقاوما.

أعادت لي كلمة الموت وهي تتلى على مسامعي صورة صاحبي من الحكماء، خَشيت أن أنال ميتةً مثل ميتتهم، ميتةً ناشفة

فظيعة رويت بالدماء، ارتعد قلبي للحظات، رحتُ ألتقط كلمات "أوندال" الذي حاد عن الموضوع وكأنه علم قرارة نفسي وجزعها فشاء أن يُعذبها أكثر فأردف يقول: ولكن قبل هذا فيجب أن تعلموا يا سادة أننا اجتمعنا نحن الحكماء قبيل سويعاتٍ لنتحدث عما سيؤول إليه حال المجلس والمعبد، وحال كبير الحكماء الذي اتفقنا على عزله وتقديمه لعدالة الآلهة، وعلى عجلةٍ من أمرنا اخترنا الأشخاص الذين سينضمون لمجلس الحكماء فأرسلنا لهم وتمت مراسم انضمامهم على الفور ليملأوا موضع النقص الذي أخلفته هذه الحادثة في المجلس ونستطيع بذلك أن نختار رئيسا للمجلس من بيننا.

تدخل رئيس الحرس "سفيان" وقاطع "أوندال" بصوتٍ رخيمٍ مُزعج: نعم أيها الأعزاء دعوني أن أنال شرف إخباركم بأني أول من عَلمَ أن كبير الحكماء الجديد الذي اختاره المجلس هو هذا الرجل العظيم الماثل أمامكم،

سُر "أوندال" ودخلت الغبطة لصدره وهو يسمع تلك الكلمات المعظمة له والممجدة لسلطانه تتلى على مسامع أهل القرية، وتابع يقول بتكبرٍ لم يستطع إخفاءه: أزهار الروض الفاتنة تلي عواصف الشتاء، والبناءُ السليم بحاجةٍ لأسس متينة، ولذلك فإن السلامة بأن يُنفى هذا الرجل وعائلته من القرية، لن نصلبه أو نقتله تقديرًا لما قدمه لكم في سابق عهده، وأيُ عقاب أكبر من أن تفارق الروح مكانًا ألفته وأرضًا هامت بها، وتصادر أملاكه لصالح المعبد، تكفيرًا له عن خطيئته، ألا واعلموا أيها الطيبون المساكين أن صاحب الرذيلة ذليلٌ ما تذكر الناس فعله، فلا تنسوا ما كان ممن استهان بكم فيعلوا بذلك عليكم مرة أخرى.

12- أكُتب على المحبين الفراق وكانَ حرامًا عليهم أن يأمنوا بقربٍ أو ألفة؟

قال "أوندال" وهو يمسحُ أثار النوم عن وجهه: آه أخبرني ما الذي أتى بك في هذا الوقت الباكر، أما كُنت لتنتظر حتى تراني في المعبد؟!

أجاب إبراهيم: أحسبُ أنه أمرٌ لا يحتمل التأجيل يا سيدي، وبه شطران شطرٌ ستسر له وآخر أظنه لن يُعجبك!

قطبَ "أوندال" حاجبيه وكأنه علمَ بفطنته فحوَى الموضوع فأشار برأسه لإبراهيم ليكمل، فتابع الآخر قائلًا: "يعقوب" يا سيدي خادمك الذي سرق كتابَ القديس وغلة حقول المعبد، هو الآن في مبنى الحرس.

- منذ متى؟

- لم يمض على الأمر ساعات.

- وهل علم أهلُ القرية بذلك؟

-هذا هو شطر الأمر المحزن يا سيدي، إذ إن في الوقت الذي اجتمع حرس القرية في منزل الجزار للإمساك بـ"يعقوب" دار بينهم معركةً صغيرة وتعالت الأصوات في الحي حتى تجمع الجيران في منزل الجزار وشهدوا على ما حدث.

- ما الذي تعنيه؟

- لقد قتل ابن الجزار، قتله قائدُ المجموعة، عندما بلغني أن "يعقوب" في القرية وأنه دخل منزل الجزار وقد كُنت في مبنى المعبد حينها ذهبتُ بنفسي لأخبر "سفيان" بالأمر فلم أجده، وكان قائدُ المجموعة نائبًا عنه، فبلغته أن يمسكهما مهما كلف الأمر، وأجزمُ أنه لم يقصد قتله، ولكنها مشيئة الآلهة

التي لا رادَ لها، أعتقدُ أن الناس حانقةٌ الآن على مقتل الشاب ويجبُ تهدئتها!

- آهٍ "سفيان" لقد أرسلته في مهمةٍ ليقضيها، سيرجع اليوم، والفتاة أين هي؟

- لقد هربت من بين أيديهم، ولكن لا عليكَ يا سيدي "يعقوب" شابٌ رخو لن يبقى فمه مقفولا أمام جنود "سفيان".

- اخرج الآن إلى المعبد وقم أنت والحكماء بتهدئة الناس، سيخرجُ بعض الطائشين ليثيروا المشاكل على موت ابن الجزار قف لهم وهدئ من روعهم، وعجّل بالدفن، فما إن يتساقط التراب على جسد الرجل حتى ينسى الناس شأنه، وما له عليهم من حقوق.

- كُنت أريد أن أسألك عن الحكيم عارف، قد طالت غيبته ولم نعلم منه أو عنه خبرًا؟!

- سأرسل من يتحسس لنا أخباره لا عليك.

خرج إبراهيم وبقي "أوندال" وحده في الحجرة، وقد اختلطت الأمور عليه كما لم تختلط من قبل، وأخذ يقول لنفسه بينما نسيم الصباح البارد بدأ بالتسلل من النافذة إلى صدره: تكاثفت الأحداث وكَبُرَت بوقتٍ واحد كما لم يحدُث من قبل، مَن كان يعلم أن الرماد الواهن يخبئُ تحته ألسنة اللهب وأن المروج الوديعة ستكون ساحة لنشوب الأعاصير! ولمَ لا؟ إن كان الهدوء والوداعة زيفُ صدقته ونسيتُ أن الفوضى والخراب هما أصلُ الأمر وأساسه، وأن الزيفَ يتلاشى كحبات الأرز في أطباق الفقراء! آهٍ ما أشد بؤس المولود وسط الأعاصير، يرفضهُ السلام ويبصقه كلما لجأ إليه، فليس لهُ من حظوةٍ يستظل بها ومأمن يرتاح فيه إلا بأن يتحد مع تلك الزوابع

الثائرة فلا يُفرق الناظرُ بينهما، حتى إذا ما وجدَ الثائرة وقد هدأت سارعَ ليفتعل إعصارًا أقوى يُدمرُ ما يمر به، ويبث الرعب في أفئدة من يراه، وبذلك يأمن على نفسه ويكون خلاصه من أيدي المتربصين،

الآن زاد غيظُ الناس لمقتل ابن الجزار وانبعثت النار من تحت الرماد فالأحرى بي أن أدُس لها أصناف الحطب التي بجعبتي حتى إذا علت ألسنةُ اللهب وثاروا، رميتُ لهم أمرًا يُطفئُ لهيبهم ويبدله بردًا وسلاما،

هو الحكيم عارف ! أجلتُ خبر مقتله طويلًا، ولن أجد وقتا مناسبًا لإفشاء الخبر أكثر من هذا الوقت، ليكن هو الحطب وليكن العثور على كتاب القديس الماء الذي سيخمد نيرانهم ويغسل صدورهم من بقاياها.

وهو كذلك يجول بالحجرة بصحبةِ أفكاره وقد مضت عليه عدة ساعات غارقًا بها في عُزلةٍ عما يدور حوله، دخل عليه قائد الحرس "سفيان" ومن فوره بادره بالقول: مات "يعقوب" يا سيدي، كان وجهه شاحبًا كطفلٍ يخبرُ رؤيةَ الموتى للمرة الأولى، لم يكن أحدٌ ليتخيل أن هذا القاتل تهتزُ جنباته وترتعد أركانه إن رأى رجلًا ميتًا، وكأن الموتى يعيدون له ذكرى أعماله، ويرسمون في حدقتيه لوحةً مرعبةً بأجسادٍ من قتلهم، لم يكن يخشى سفكَ الدماء بقدر ما يخشى الشعور الذي يطارده عقبَ سفكها، كانت النشوةُ والتلذذ بالقتل ينسيانه تلك الآلام ويضعُ حجابًا عن المعانةِ التي سيكابدها بعد ذلك.

لم ينبس "أوندال" ببنتِ شَفةٍ بينما تابع "سفيان" قائلًا: وجده الجنود وقد فارق الحياة في زنزانته، تفحصتُ وجهه وجسده فور

عودتي وإخباري بالأمر، يبدو يا سيدي أن جسده كان أضعف من أن يحتمل قسوتهم.

أشار "أوندال" لـ"سفيان" بالجلوس وقد اضطربَ للحظات وسار خياله بعيداً لأيامٍ وسنوات ليفتت قسوة اللحظة ويزيل حقد الأيام، لوّح بيده أمام عينيه ليطرد صورة "يعقوب" البديعة من أمامه ثم قال ووجهه إلى الجدار وكأنه يريد استعادة رباطة جأشه شيئًا فشيئا: وعباس... هل وجدته؟

- اختفى يا سيدي وضاع أثره.

عاد "أوندال" لدوامة أفكاره، تلك الضوضاء أخلفت لديه صمتًا عميقًا كبئر، وندبات كأسدٍ هرم، بقي حبيسًا في منزله وأوكل مهامه للحكماء، خارت قواه بخروج ابنه عن طاعته كما خارت قوى "جورج" بسلب ابنه من حياته، الأبُ رجلٌ ضعيف أمام ولده، مهما بلغت قسوته وقوته يبقى ضعيفًا أمامَ الفقد أو خيبة الأمل، وكأن الأطفال بذور يزرعها فلاحٌ فقير يسره أن يراها تنمو بدفء عينيه وأن تكون ثمرةً كما رسم لها في خياله، يقتاتُ منها بأيام الضعف والعوز ويتكئ عليها بالأيام العاصفة، فإن طرأ طارئٌ وبدد تلك الأحلام تراه منكسرًا وحيدًا وكأن الحياة تبددت مع ذاك الخيال، بقي الحكماء يترددون عليه وقائد الحرس فيخبروه بما يجري وقد حق توقعه وعم الغضب لمقتل ابن الجزار وتأججت النار أكثر عندما علم الحكماء أن الحكيم عارف اعترضه قطاع الطرق واللصوص فنهبوه وقتلوه وطلبته في طريقه للجبل الشرقي، فزادَ حنق الناس على حرس القرية، وكيف لا والحرس يصول ويجول ويتعدى على المنازل، والطرقات تعمها الفوضى واللصوص يعيثون بها فسادًا دون أن تجد رادعًا يكفُ أيديهم عن الضعفاء،

واستمرَ الأمر كذلك لأيام قليلة حتى خرج الحكماء فأعلنوا العثور على كتاب القديس وموت "يعقوب" الذي سرقه، فهدأت الناس وارتفعت زغاريد النسوة وأدعية المؤمنين وهتافات الرجال لحرس القرية الذي صان دينهم!

كانت "أراس" قد التقت بعباس عشية هروبها من منزل الجزار، لم يجرؤ أيٌ منهما على النزول إلى القرية أو الخروج من باب المغارة، أخذ الحديث بينهما مجراه، وراح يسير كماء النهر لا يعيقه إلا أمور كانت تسلبُ ألباب أصحابها، بقي الاثنان على أمل خروج أحدٍ من القرية إليهما، وفي كُل يومٍ يمضي يجددان بنفسيهما أمل الخلاص، وكم تمنيا أن يستيقظا وكأن شيئًا لم يكُن، وكأن ما مر ما هو إلا حُلمٌ ثقيل وقد انتهى، ولكن أنى للأحلام أن تكون واقعًا، وأنى للواقع أن يستحيل حلمًا، وانكب الاثنان على قراءة المذكرات وتمحيصها، حرفًا إثر حرف وكلمةً إثر أختها، حتى اتضح أمامهما المشهد، وإن كان ناقصًا بعض الشيء إلا أنه فيه من الملامح ما يكفي لإعانتهم، عمّ الرعبُ في صدر "أراس" إذ تأكدت من شكوك "جورج" الجزار بالطبيب إبراهيم عبر ما قرأته في مذكرات أبيها، وكان جُل ما تخشاه أن يقع "يعقوب" في شباكه الخبيثة وهو ما حصل في الحقيقة، وما سيحصل لها عقب ذلك أيضًا، وهي كذلك وفي اليوم الذي تلا ظهور كتاب القديس وانتشار نبأ موت "يعقوب" في زنزانته، صُدمَ المنعزلان برؤية الطبيب إبراهيم يلجُ إليهما من باب المغارة بهدوء الواثق وحذر الخائف، فلم تزد "أراس" على أن رحبت به وقد علمت بقرارةِ نفسها أنه ما كان له أن يصل إلى المغارة لولا أن "يعقوب" قد أرسله، وأنه ما من سبيلٍ أمامها إلا أن

تبدي له الثقة وإن أبطنت غير ذلك، وعلم عباس ما يدور بخلدها إذ رآها ترحبُ به فحذا حذوها.

جلسَ الطيب إبراهيم وقد حاول جاهداً أن يستقدم ملامحَ الغضب والحزن إلى وجهه فنجح بذلك واستقدمَ ملامح تستنطقُ من يراها، وكذلكَ فعلت بـ"أراس" التي بادرت تقول بعد أن رأت حالته: أظنُ أن الأمر الذي أتى بك ليس خيراً!

- وهل للخير مُتسعٌ في بلادٍ تولاها السفلة! اعذرني يا عباس لكن لا أظن أنك في مقامك هذا إلا وأنت مُدركٌ صدقَ ما أقول.

تابع إبراهيم كلامه بصوتٍ ناعسٍ متألم وأخذ يقص عليهما ما جرى بالقرية وموت "يعقوب" وابن الجزار وفرح الأهالي بالقبض على سارق كتاب القديس وموته، واسترسل في حديثه ووصفه للتفاصيل و"أراس" تستمع وكأن عشرات السكاكين تقطع بلحمها، انقبض صدرها ووقع قلبها في بئرٍ لا قرار له، لم تستطع أن تتمالك نفسها فراحت دموعها سيلًا من الحمم، وأخذ الغضب ينقرُ رأس عباس كنسرٍ يأكل من فريسته، أوقفت سيل الدموع بحاجز التوق للانتقام وأفرغت بجوفها الماء البارد ثم قالت: والآن ما الذي سيجري؟

قال إبراهيم محاولًا جرهما إلى طلب العون منه: لا شيء، انتهى الأمر الذي كنتما به منشغلينَ، مات "يعقوب" وما من أمرٍ يثير "أوندال" عليكِ، أما أنت يا عباس فقد علمتُ أن أباك أرسل "سفيان" للبحث عنك ولن يتوقف عن ذلك، فإن عُدت إلى طاعته هان الأمر عليك، هذا كُل ما لدي لكما، ولا أخفيك أني على علمٍ بسبب خروجكَ من القرية، وقد أخبرني "يعقوب" قبل موته أنني سأجدكَ هُنا واتفقت أنت وهو أن تكون عونا لنا

لإظهار براءته والحكيم صادق كان سيشهد أننا من دفعنا "يعقوب" للهرب من القرية، ولكنه مات ذاك البائس، شاءت الآلهة له الخلاصَ على طريقتها، أما الآن فلا أظنكما أندادًا لـ"أوندال".

- لم ينته شيء بعد بالنسبة لي، وهناك "جورج" وآخرون يتوقون للانتقام، كُنا قد عقدنا العزم وعباس معنا للنزول إلى القرية في حال تمت محاكمة "يعقوب" ليدلي عباس بما رأى، ولكن قد فاتَ الأوان، تابعت "أراس" وكأنها ترى أن إبراهيم القشة الأخيرة التي ستنجيها من الغرق، مجازفةً بما قرأت بمذكراتِ أبيها: هل لك بنصرتنا أيها الطيب؟

- ما هذا السؤال يا بُنيتي لو لم يكن هذا مقصدي لما وجدتني هُنا، إنني أشفقُ عليكما ولكنني عاجزٌ عن نصرتكما، قولي ما الذي تريدينه ولن أخيبك أبدًا.

- قبل ذلك هل تعلم كيف قتل الحكيم عارف، فأنت اللبيبُ الفطن الذي له عيون في كُل بيتٍ وعلى كُل حجر، اصدقني القول.

- آه يا ابنتي لقد علمتُ وكان الأوان قد فات، دائمًا تصلنا الأشياء التي نريد في الوقت الخطأ، هل هو فعلُ القدر أم من سعينا البطيء لا أعلم، لو أخبرني أبوكِ بما قد نوى؛ لو تحدث الحكيم عارف بما أراد لكُنت في جانبهما، لكنها مشيئةُ الآلهة على كُل حال وليس لي بأن أعترض عليها، أعلمُ أن أباكِ تركَ مذكراتٍ له يروي بها ما حدث، أفلم تجدي بها ضالتك؟!

- ليست كافية...!

- أعلمُ أن الحكيم عارف كان قد خرج برفقةِ بعض الشبان من الطلبةِ الذين يثقُ بهم فقط، للنظر في وباءٍ ظهر في الجبل الشرقي، فعلمتُ من أحدِ هؤلاء قبل خروجه أن الغايةَ جمعُ الشبان الأشداء واستئجارهم للانقلاب على "أوندال"، فكتمتُ الأمر وما هي إلا أيام وعلمتُ بما جرى لأبيكِ، أظنُ أن الحكيم عارف وكبير الحكماء المعزول كانا قد خططا سويًا ووصل الأمر لـ"أوندال"، لذلك قتلا في أيامٍ مُتقاربةٍ، تلك البلادُ اللعينةُ لا يُكتم بها سر، هل ذكر أبوكِ شيئًا عن عارف؟

تدخل عباس من فوره وأجابَ بدلًا من الفتاة وهو يلوح بيده متخيلًا المشهد أمامه: لا لا ليس للحكيم عارف ذِكرٌ في المذكرات، لم يزد الحكيم المعزول عن سرد المذبحةِ التي حصلت في بيته بحق الحكماء، وعن فضلك في كشف حقيقةِ والدي له قبل ذلك، هذا كُل ما في الأمر.

- آه يا ولدي تلك الليلةُ اللعينةُ لا تنسى، كم تمنيتُ أن أكون بين الجثث على أن أحيا ويداي قاصرتان عن الظالمين.

- ستطول إلى أعناقهم، لعله لم يكن الوقت حينها مناسبًا، وقد أتى وقتنا فلن ننتظر كي يفوت.

- أتقول هذا على والدك، آهٍ ما أشدَ قلبك...! تعجبني أيها الشاب أيما إعجاب لو كان لي نصف ما لك من الصلابةِ والحزم، قولي يا "أراس" ما الذي تريدينه؟

- الجزار... اذهب إليه وحدثه في شأن الشباب الذي أراد جمعهم.

- ذلك المسكين يكادُ يفقدُ عقله.

- لن يفقد عقله إلا إن بقي صامتًا.

- وأنا أيضًا بعض الجنود من فرسان القريةِ يدينون لي، كُنت قد كسبتُ ودهم طيلةَ تلك السنين ليومٍ مثلَ هذا.

- لا أريدُ معركةً بقدر ما أريدُ أن أتحدث لأهل القريةِ دون أن يعترضني أحد، فإن جمعتَ الحكماء إلى جانبكَ أيضًا هانَ علينا الأمر.

- هُم إلى جانبي جميعهم طيلةَ السنين الماضيةِ وأنا أجودُ لهم بالولائم وأملأ بطونهم بما لذ وطاب حتى أصبح الرجلُ منهم يرتجي أن أطلب منه طلبًا، املأ بطن الجائع تجده عبدًا، أعط اللذةَ لمشتهيها يكُن خادمًا لك.

هز عباس رأسه على مضض وقد أثارت حنقه تلك الكلمات ثم قال: إذًا سأنزل إلى القريةِ برفقتك وأختبئُ عندكَ إلى أن يتم الأمر.

أجابت "أراس" وقد أخذ رأسها يدور كأنها لم تفق بعد من خبر موت "يعقوب": لا لا، لن تنزل إلى أي مكان.

- هو كذلك يا بني، ابق هنا في مأمن وسأوافيكما بكل جديد، لن يحتاج الأمرُ كثيرًا من الجُهد، فأبوكَ لم يخرج من المنزل بعد هروبك من القريةِ أما عن الحرس فإن لي بينهم عُصبةً ستذود عنا، والحُكماء يرونَ ما يجري وكُلٌ منهم خائفٌ من أن يبدأ القول، وأنا منهم كُنت ومازالتُ خائفًا، ولكن عارٌ أن أرفض نصرة مظلومٍ وعندي ما ينصفه، أقولها لكم حتى وإن تخلف "جورج" الجزار فإن من معنا يكفون لدفع أهل القريةِ لنصرتنا، فانتظروا سبعةَ أيام وسأرسل من يؤمن دخولكما القريةَ في اليوم الثامن.

خرجَ الطيب إبراهيم وخَلفَ من بعده صدمةً لا يسعها الجبل إن فرغت أحشاؤه، فكيف لصدر فتاةٍ وديعةٍ بأن يسعها؟ خرجت من المغارة واتكأت على الشجرة التي اعتادت الركون إلي فيئها، ورمت بحملها على جذع الشجرة فأبى أن يشاركها إياه؛ فراحت

تدور حول نفسها كفرسٍ بري يحاول إسقاط غريبٍ مُتطفل اعتلاه، أخذ عقلها يصرخ قبل لسانها وراحت تحدثُ نفسها، تقدم إليها عباس وجلس بمقربةٍ منها وهي تقول: منذٌ أيامٍ كانت هذه المغارة ملاذًا لنا، آنس به ويأنسُ بي أنس المحبين، والفضيلةٌ تحيطنا من كُل حدبٍ وصوب، وما بين غفلةٌ عينٍ وانتباهها رحل، وحل مكانه آخر.

أحقًا ماتَ "يعقوب"...الذي مثله لا يموت، لا يتوقفُ الدم عن التدفق في عروقه البارزة، تأبى الدماء أن تفارقه، فكيف للروح أن يهون عليها مفارقةٌ ذلك الجسد الطاهر العذب!!؟ هو أقوى من أن تعَصف به بعض الأحداث، وأجملُ من أن تشوهه بعض الجروح، وأوفى من أن يرحل بصمتِ الخائنين، كانَ جميلًا كصفحةٌ السماء قبل الغروب، ومرحًا كطفلٍ لم يخبر خُبث الحياة، نقيا كالثلج كماء النبع، كانَ إذا ضحكَ رقصت له الغيوم، وإن مر تمايلت عليه الأشجار، وأنشدت له البلابل ألحان العشق، حُمرة خده تثيرُ بالناظر له حُبًا لا يُكبح وودًا لا يسعه المكان، أيرحل الأنقياء بصمتٍ يا عباس!!؟ هكذا، دون جلبةٌ، أيخشون إزعاج من يحبون فيرحلون بهدوءٍ كهذا، أما علمُوا أن رحيلهم سيثير بنفوسنا عواصف تهدمُ أركانها، ذاكَ الجميلُ النقي لمن يكلني من بعده، أكُتب على المحبين الفراق وكانَ حرامًا عليهم أن يأمنوا بقربٍ أو ألفةٌ!!؟

13- المذكرة السادسة.

•صخبٌ مُدوٍ، ضجيجٌ لا يُحتمل، خيبة تنبش في قلبي بعد أن أودت به، آلام تعصف بي كُل حين، أيادي حسبتها ستنتشلني من غرقي فراحت تزجّ بي في الأعماق، ظلمٌ لا طاقة لي به، يصارعني كشابٍ في العشرين ينازل امرأةً في أرذل العمر، هذا ما أخلفته بي تلك الحادثة، كَثُرَ الكلامُ الذي وددت البوح به دون أن أجد أذنًا صاغية فلذتُ بالصمت، الصمتُ فضيلة مجهدة وهنيئًا لمن قدر عليها، لم أستطع الصمود بين البشر ونظراتهم تجلدني صباحَ مساء، لم أقوَ على تخيل أن تلك الليلة يُمكن أن تتكرر هنا في منزلي الجديد مرةً أخرى وأمام عائلتي، خوفي من "أوندال" ومما سيقدم عليه دفعني للاقتراب منه أكثر، لا أدري ما هذا التناقض الذي ألمّ بي، ولا أدري هل هو خوفٌ من "أوندال" أم خوف من أرواح الحكماء التي سُلِبَتْ لهوًا ولم يقتص لها أحد، كان يجب أن يخرجَ للناس رجلٌ يخبرهم الحقيقة ويسعى للثأر لمن قتل وظلم، خرجتُ لمغارةٍ قريبة من القرية بعد أن تركت عائلتي في مَسكنهم الجديد أو منفاهمُ إن صح القول، كُنتُ موقنًا أن اقترابي من "أوندال" والقرية سيجعلني علي اطلاع بما يدور في فلكه، وعن مقصده بعد الذي أحرزه، اطمأنت القرية في السنوات الأولى التي تلت تعيين "أوندال" قبل أن يُضيقَ الخناق عليهم شيئًا فشيئا، لم يكُن يشغل بال الناس شاغلٌ سوى حياتهم وسُبل عيشهم، لكن "أوندال" لم يكُن هادئًا وإلى هذا الوقت الذي أخطّ به هذه الصحيفة مازال على حاله يكيدُ لمن شهدوا تلك الليلة الدامية.

اعتزلتُ في المغارة لأجد سكون نفسي وسبيلا للثورةِ على "أوندال"، حرت في سبب إبقائه على حياتي وقد كانَ قادرًا على سلبها دون أن يعترضه أحد وفي الساحة على مرأى من عيون أهل القرية والحكماء، أجابني على هذا التساؤل إبراهيم وقد أتاني إلى المغارة بعد أن عمّ خبر اعتزالي في قرى الجبل أجمع، وبعد أن أخبرني أنه كان من الحكماء الذين تم ضمهم للمجلس صبيحة الليلة الدامية، وكان ضمهُ للمجلس شيئا من العجب أثار الدهشة في صدري حينها، أخذ يقول والأسى ظاهر عليه وأحسبُ أنه ممثلٌ بارع يُجيدُ البكاء وقلبه يرقصُ فرحًا: إن "أوندال" يا سيدي كان قد عقدَ العزم على قتلك فيما مضى أمامَ أهل القرية جزاءً للتهمة التي لفقها لك، وقد حدث الحكماء بذلك بعد أن خرجوا من منزلك برفقته في تلك الليلة المشؤومة، وكنت معهم حينها، لكنهم رفضوا وأبوا ذلك وقايضوا روحك وأرواحهم بالسكوت عليه والخضوع له وتلبية ما يشاء وإقرارَ ما يدعي، فهل يا سيدي لديك ما ستقدم عليه أم أحسب أن نفسك أنفت هذه الحياة فاخترت العزلة هنا إلى أن تشاء الآلهة ما سيكون؟

لم أجبه حينها، كُنت حقًا لا أدري إلى أين سأتجه، ما الذي سأفعله في قادم الأيام، فقدتُ الأمل في بعض الأوقات فرحتُ أقولُ لنفسي: جذعُ الشجرة اليابسة لا أمل في أن يُثمر لكنه يُمكن أن يكون نارًا تنير الظلمات وتدفئ الأحلام وتصلي الأيدي العابثة، فما خطبُك أنت تدعي عدم الحول والحيلة؟! حَسبتُ أن العزلة ستعيد لي هدوئي المسلوب، فزاد الضجيجُ وتكاثرت الأفكار برأسي وكأني في صحراء تتخبطني الرياح

بما تحمله من سمومٍ، وعجزت عن إيجاد ملجأ يحميني منها، تداوم على زيارتي لفترةٍ وجيزة بعض الطلبة والقليل من أهل القرية الذين لم يُصدقوا ما نُسب إليّ، كُنت أخشى إن أنا رفعت لهم الحجاب عما في صدري أن تدور الدائرة عليهم فيهلكوا؛ فرحتُ ألوذ بالصمت، لم أخبر أحداً ممن سألني عن أصل ما جرى، وحدها العيون التي كانت تنطق متوسلةً الخلاص راجيةً الشفقة، لم ينطلق لساني في الحديث مع أحدٍ كما هو الحال مع إبراهيم، كان يبدأ حديثه فيخبرني بأعماله التي يقوم بها كحكيمٍ في المجلس، ويطلبُ مني المشورة لإنجاز ما يستعصي عليه من أمور العمل، حتى إذا فرغَ من كلامه رحتُ أفضي إليه عن القليل مما في صدري وهو مُنصت بشكلٍ يدفع المتحدث إلى الإكثار من قوله، وفي النهاية يُخرج من جعبته الكتب التي طلبتها منه فيأخذ ما أنهيته ليعيده إلى موضعه في مبنى الحكماء ويعطيني ما طلبت، الكتاب ملجأ لكل تائه، ومُتكأ لكل مُتعب، هو الطريق لمن مل الضياع، والأنيس لمن أوحشته الوحدة، من حظي بكتابٍ فقد حظي بصديقٍ يسمع دون عذل، ومعلمٍ يرشد دون قسوة، قرأت عن مئات العظماء ممن قادوا العالم وانصاع الناس لأفكارهم، جميعهم كان الكتاب رفيقهم والقراءة متنفسهم، العالم سرٌ غامض معقد ولن يُحل عقده جمعٌ من الجهلة، ينتابني أحياناً شعورٌ بالحزن على من لا يُجيد القراءة، وشعورٌ عدواني على من يُجيدها وتأنف نفسه صحبة الكتاب، فطالما أن الإنسان ليس وحده على وجه البسيطة فإن جهله خطيئة، وطلبُ المعرفة واجبٌ عليه اتجاه أقرانه.

سبعة أعوام مرت وأنا في هذه المغارة، مَضت سنون ثقيلة مرهقة في بادئ الأمر ثم ما لبثت وأن صارت سريعةً خاطفة كالبرق، اعتدتُ العزلة وألفتها نفسي، تساقط ثلاثة من الحكماء الذين شهدوا الحادثة واحدًا تلو الآخر، ومات السر بموتهم، لم يبق سوى الطيب إبراهيم وحكيمٌ آخر شاهدٌ على ما جرى، بقي إبراهيم على حاله يترددُ لزيارتي بين الفينة والأخرى في جُنح الظلام بعيدًا عن الأعين، وَفي آخر لقاءٍ جمعني به، راحَ يتحدثُ عن تلك الليلة المشؤومة، مر زمانٌ مديد وزيارات طوال تجنبت الحديث عنها معه، إنه الخوف والشتات يجعلنا نتظاهرُ بعدمِ الاكتراث ودواخلنا تحترق للأمر، طلبتُ منه أن يأتيني بالحكماء لمراتٍ عديدة في السنوات الأولى فرفضوا ذلك، لم أحزن لرفضهم وحسبت أن حالي وحالهم سواء، جميعنا خَشي على عائلته وعنقه وقلت لنفسي ربما تشجع أحدهم وخط الحقيقة قبل موته على صُحفٍ ناصعة، كما أفعل أنا الآن ليكون بعين نفسه المقاومَ الشجاع ويموت وأنفه يُعانقُ السماء عزةً وشموخًا، ولكن ظني كانَ خاطئًا بما حسبته عنهم وبما حسبته عن "أوندال" وعن إبراهيم أيضًا، إذ إن أحد طلبة المعبد القدامى ومازال مواظبًا على زيارتي بين الحين والآخر، ولم يزد حديثه طوال السبع سنوات الفائتة عن السؤال في أمور العلم والدين التي يصبو لمعرفتها، ومنذ فترةٍ ليست بالبعيدة أتاني بنص رسالةٍ من الحكيم عارف وهو آخر الأحياء الذين شهدوا تلك الليلة إن استثنينا إبراهيم، وقد أورد في رسالته أنه والحكماء الذين وافاهم الموت قد وقعوا ضحية خديعةٍ لفقها إبراهيم طيلة السبع سنوات الغابرة، وأخذ

يشرحُ في مكتوبه أنها خديعةٌ محكمةٌ الجوانب لا يخرج بها سوى رجلٍ ذي عقل ذكي وفكر مُتقد ودهاء لا ينضب، خديعةٌ حالت بينهم وبين اتصالهم بي ورؤيتي، دون أن يعلموا الهدف منها والغايةٌ التي يطلبها الرجل، وقد أسهب الحكيم في تحذيري من إبراهيم وجاد بوصف فظائعه حتى حسبتُ أنه يتحدثُ عن شخصٍ آخر غير الذي أعرفه وقال بإحدى رسائله يصِف خُبث إبراهيم: واعلم يا صديقي أنه قد انتشر بين الناس أن الطيب إبراهيم قد بذل نتاج حقله كاملًا إلى نساء الجبل اللواتي لا مُعيل لهن شَرط أن يعملوا بها بما لديهم من قوةٍ على ذلك، فهرولت النساء إلى بابه يطلبون العون والمدد، ويدعون له الآلهةٌ على هذه الفرصةٌ التي تأمنُ عيشهم وتقيهم الجوع، فأخذ بدوره ينتقي الحسناوات صغار السن ومن كان بوجهها بصيص جمالٍ يجذبُ الرجل، أما اللواتي ذهب الدهر بنضارة وجوههن واللواتي لم ينلن حظًا من نعمةٌ الجمال فكان يُقدم لهن الأعذار ويصرفهن بعيداً عنه، وبذلك أصبح رجلًا بين عشرات النساء في حقلٍ كان يحلمُ بأن يمتلك ظل شجرةٍ فيه، وأخذت النساء تهرب من دياره واحدةً تلو الأخرى، وانتشر خبر تحرشه بنساء حقله حتى انقسم الناس بين مُصدقٍ يشتمه، ومنكرٍ يبجله، فلم يبق في دياره إلا من ملت العوز ونهش لحمها الفقر، فآثرت المال على شرفها والشبع على عفتها، وهذا دأبُ من امتلك مالًا وغاب ضميره من الرجال ومن امتلكت جمالًا وغابت عفتها من النساء، فلا تأمن لذلك الخبيث واحفظ لسانك إن حضر مجلسك، ولتعلم أننا نحنُ الحكماء قد غُلبَ على أمرنا ولم يعد ينفع القول والوعظ فأمر "أوندال" نافذ وإبراهيم تحت جناحه راقد.

وأشار في ختام مرساله إلى أن وقت البدار والثأر قد حان وأن ساعده بجانب ساعدي إن أنا شئت التحرك ونبش ما مضى بعدَ أن غفل عن ذكره الناس، وما زال هذا الطالب إلى يومي هذا صلة وصلٍ بيني وبين الحكيم، يأخذ مرسالًا ويعود بآخر وأحسبُ أني إن استطعت أن أنفذ ما يدور في خلدي ستكشف الحقيقة بلسان مالكها لا بقلمه، القلم صوت المستضعفين حين يعلو صوت الظلم على أصوات حناجرهم، أما من امتلك القوة فلا شيء يعلو عليه.

14- ما مِن شيءٍ أشدُ وطأةً على الإنسان من أن يجد نفسه في مستنقع من الزيف والوهم.

بدأ توافد الأهالي إلى ساحة القرية من كل حدبٍ وصوب، مع وصول قائد الحرس "سفيان" مصفدًا بالقيود ممتلئا بالجروح يجره قائدُ المجموعة سليم وحوله بعض الجنود والشبان المسلحين من طلبة المعبد وسكان القرية، وهم كذلك اقتحم الساحة عددٌ من الخيول تحملُ عباس و"أراس" وجنودًا آخرين كان قد أرسلهم الطيب إبراهيم لحماية الشاب والفتاة وإيصالهما إلى القرية بسلام، كثر الكلام بين الناس وراحت العيون تترقبُ الإجابة عما يجري من وجوه العارفين والثائرين، وهم كذلك يقلبون أنظارهم بين قائد الحرس وقد أتعبته قيوده وبين الفتاة التي اقتحمت الجمع لتقف عند رأس الرجل الراكع على ركبتيه، وصل حكماء القرية كشعاعٍ من نور اقتحم طريقًا مُظلمًا ومن خلفهم "أوندال" كبير الحكماء وقد

صار إلى ما صار إليه صاحبه "سفيان" كانت الدهشة والخوف يجولان بوجهه كما تجولُ الخيلُ في أرضها فتسرق أنظار الحاضرين، وكذلك الحكماء لم يُخفف عنهم الخوف مما أقدموا عليه، إلا وعُود الطيب إبراهيم بتقسيم حقول المعبد عليهم إن هو تولى رئاسة الحكماء، فأقبلوا وتشجعوا، وقالوا بملء أفواههم: هيهات للظلم أن يجد مطرحًا في أرضٍ نحنُ بها، امض أيها الطيب فإننا لك من الناصرين، ومن خلفنا طلبةً ينصاعون لأمرنا وفرسان في عهدتنا، وكذلك اجتمع الأمر والكلمة للطيب إبراهيم، فدبرَ وسجن من الجنودِ أصحاب الولاء لـ"سفيان" وتولى قائد المجموعة أمر "سفيان" بنفسه، لينقضّ على كبير الحكماء بعد ذلك دون عناء، وخلال ذلك كان "جورج" الجزار قد أعد العدة، وبدأ بشحذ نفوس من يثقُ بهم من شباب الجبل عقب دفن ولده ليكون انتقامه القشة التي ستكسرُ ظهر الطيبِ إبراهيم فيما بعد، مَضت سنواتٌ وإبراهيم يخطو لغايته رويدًا رويدا، بدا النصر ثمرةً ناضجة، تراقصها النسماتُ وتنظرُ إليها العيونُ بشهوة، فتأبى أن يلمسها إلا من رعاها، وهو الطيبُ رعاها بخبثه وكادَ المكائدَ لتنضُج وخاض الوحل ليصل إليها ويستأثر بها وحده، وينعمَ بمذاقها في هدأةِ الليل، وها هو قاب قوسين أو أدنى مِن الظفر بها، فلم يكُن ينقصه سوى بطولةٍ ترفعه بأعين الناس وتدفعهُم لرفعهِ فوقَ الأيدي ليصل إلى ثمرته المبتغاة، فوجد من حكاية "أراس" بطولةً يَظهرُ بها وتشرعُ له وصوله لقيادة الحكماء.

كان الجو رطبا نديًا، لم تفارقه برودة الليل المنصرم ولم يحظ بدفء النهار بعد، والشمسُ ما زالت مختبئةً خلف مبنى المعبد الشاهق، يصل شعاعٌ خفيف منها ليزينَ الجبل في الأفق البعيد،

وصياحُ الديكةِ يعلو من المنازل المجاورة، بينما تجول القطط بحذرٍ وترَقب حول دكان الجزار لتحظى بوجبتها الصباحية كما اعتادت، ولم يمنعها من ذلك ازدحام الناس حولها وارتفاع أصواتهم وحِدّتها.

تقدم الطيب إبراهيم من صف الحكماء ضامًا كلتا يديه وأخذ يقول بصوت مرتفعٍ خجول تغلفه الرجفة: ما مِن شيءٍ أشدُ وطأةً على النفس من أن يجد الإنسان نفسه في مستنقع من الزيف والوهم، نعم أيها الكِرام الطيبون لقد عِشتم طيلة هذه السنين في وهمٍ وغرقتم في الخديعة حتى استحال عليكُم رؤية الحقيقة، إلا قلائل منكم علموا أن للحقيقة عمرًا لا ينضُب وأنها ستظهرُ مهما طال غيابها، ولكنه الخوف كانَ قيدًا على أفواههم.

سَكن المكان وراح الطيبُ ينبشُ أحداث المذبحة التي قام بها "أوندال" في تلك الليلة الملعونة، ومع كُل كلمةٍ يلقيها كان الندمُ يشقُ طريقه بقسوةٍ في قلوب سادةِ القرية ممن آذوا الحكيم المعزول، والعيون تتقد نيرانها توْقًا لحرق من خدعهم، حتى إذا ما انتهى من كلامه تقدمه عباس ابن "أوندال" وكأنه في محكمةٍ يُدلي بشهادته، وقف شامخًا وانهال الكلام من فاهه مُشيعًا بدموع عينيه ليقص على الآذان الصاغية حقيقة ما جرى لكتابِ القديس، فوجئ الجميعُ بما يسمعون وراحت دموع بعض الشباب تسيل كأنها حُممٌ حارقة على صديقهُم الذي ظلم، لم يحتمل أحد الشبان ما يسمع وأخذته الحمية وكأن "يعقوب" رجلٌ من أسرته كان حقًا عليه الثأر له، لم يَكن على علاقةٍ بـ"يعقوب" إلا أن الحق يُنصرُ لأجله وليس لأجل أصحابه، هاج الرجل كالبحر إن غضب ولم

يجد ما ينفث به غضبه سوى حجرٍ كبير ملأ به كفه ورماه بقوةِ حقده على "أوندال" لا بقوة ذراعهِ فشق به رأسه، وكأن ذاكَ الحجر كان إيذانًا للغاضبين لتنفيس غضبهم، فراحت الأحجار بالعشرات تتطاير باتجاه "أوندال" و"سفيان"، ابتعدَ الحكماء وقد كانوا صفًا خلف الرجلين واحتمى من كان في طريق الأحجار المترامية وعلا الصراخ والشتائم دون أن يجرؤ أحد على إيقاف المندفعين، حتى اخترق عباس ذلك السيل المتطاير حاميًا وجهه بكفيه وهو يصرخ ملء فمه: ارحموه... ارحموه، فكف الشبان إشفاقًا على صاحبهم وقد هدأت ثائرتهم، ارتمى عباس على جسدِ أبيه وأسندهُ على جسده ودماؤه تنزفُ من كُلِ موضع، كان صاحبه "سفيان" قد فارق الحياة على الفور بحجرٍ شق رأسه نصفين، لينال "أوندال" القدر الأكبر من العذاب؛ وقال وهو يلفظُ أنفاسه الأخيرة بكلماتٍ ملأتها الخيبة مُحملقًا بولده: وعدتني أن تكون كابوسي عندما تعود... وها قد وفيت بوعدك.

سكن المكان واتسع لنشوةِ النصر وغبطةِ الصدور كما اتسع للرهبة والشفقة، أحوالٌ متعددة ومشاعر متناقضة انبثقت من الصدور لحدثٍ مُنفرد، بَكت "أراس" فرحًا وقد انتصفت من قاتل أبيها، وارتعدت ركبتا الطبيبِ إبراهيم لما جرى، كان الحكماء جميعهم ينظرون لما يَحدُث وكأن الدائرة ستدور عليهم، يَعلمُ الطاغية نهايته الدنيئة فيرسُم لنفسه من الزيف نهايةً كريمة ليسلي بها نفسه، خشي إبراهيم أن تفلت الأمور من قبضته وأرادَ لنفسه أن يظهر بصورة القائد الجديد الممسك بزمام الأمور، وأن ما من حدثٍ يُقام أو أمرٍ يُفعل إلا بمشيئته وتحت رضاه، فعاد إلى جانبِ الجثتين ولحق به قائدِ المجموعة

سليم وكأنه فهمَ مخاوفه فأراد أن يُبددها، ربتت "أراس" على كتف عباس وشدت ذراعه ليقف بجانبها ويتمالك نفسه إذ بدأ إبراهيم يصدح قائلا: ها قد تحققت العدالة الإلهية وتم القصاصُ من الظلمة المتآمرين، ليس هينًا ما حَصل أيها السادة ولكن لن يُحاسب أحد ممن أقدموا على رجم الملعونين، فأنتم أصحاب القرار في شأن من خدعكم.

علت بعض الأصوات: المجدُ للطيب ... المجدُ للطيب...

وهم كذلك يصيحون وقد دخلت الغبطة صدر إبراهيم وتنفس الصعداء على وقع ما يسمع، رفعت "أراس" يداها مشيرةً للجمع بالهدوء، وأخذت تقول وهي تنقلُ عينيها بين وجوه الأهالي ووجهه إبراهيم: لم يَكتمل الأمرُ بعد... إنكم أيها الأخيار قد سَمعتم وقائع المذبحة بلسان الطيب وسمعتم ما كان من أمر كتاب القديس ولكن قد بقي الكثيرُ قيد الكتمان ومنه وهو ما يَهم لتسمعوه أن الحكيم عارف كان قد خرج من القرية ليحضر قوةً تعينه على الانتصاف من "أوندال" ولم يعلم بالأمر سوى الطيب إبراهيم وآخر نقل الأمر لـ"أوندال" لم نعلم من هو، ولو أنكم تريثتم في قتل "سفيان" وصاحبه لفتحَ لنا المجال لمعرفة ما نجهل، فجديرٌ بنا أن نذكُر الحكيم عارف كبطلٍ قضى في طريقه لتحقيق العدالة كما قضى أبي، وها هي آخر مذكراته (وأشارت إلى صحيفةٍ بيدها أظهرتها للحاضرين) كتب بها بأنه سيخرج لملاقاة الحكيم عارف عند مداخل القرية وعقبَ ذلك وجد مقتولًا! أما وقد سلكنا طريقَ الحق فحريٌ بنا أن نمضي به حتى النهاية لينال كُلُ ظالمٍ جزاءه، فمن يرمي المجداف في منتصف الرحلة سيكون وجبةً لسمك البحر...

ثم تابعت وهي تعتلي حائط نافورة المياه وأشارت بيدها نحو قائد المجموعة سليم: هذا الرجُل قد قتل منذُ أيامٍ ابن صاحبكم الجزار، وها هو اليوم يقفُ منتصبَ القوام شامخَ الأنفِ بيننا وكأنه لم يرتكب جرمًا ولم يُبكِ عيونًا، فحريٌ بنا أن نقتص منه وأن يجري عليه سيف العدل كما جرى على الذين من قبله.

اضطربَ سليم وتقلصت أعصابه، وراحت يده تشدُ على مِقبض سيفه المُغمد، وهو يُنقلُ عيونه بين الحضور كأسدٍ ينتظر من سيبدؤه بالهجوم ليزرع نابيه بعنقه، كان "جورج" يقف بالمؤخرةِ عند دكانه ومن خلفه ما يزيدُ عن سبعةِ شبان أشداء يقفون كسدٍ يحجبُ باب الدكان، حيته "أراس" برأسها وقد بان لها بعد أن ارتفعت فوق الجمع، فردَ التحيةَ بالمثل، قاطعها الطيبُ إبراهيم وكأنها تريدُ أن تنزع روحه من بين كتفيه وراحَ يصرخُ مُصطنعا اللين: على رسلكِ... على رسلكِ يا بُنيتي، إن هذا الرجُل الطيب الذي تنعتينه بالمُجرم قد أصبح سيفًا للعدل اليوم فلولاه لما أحكمنا القبضةَ على "سفيان" ولولاه لما استطعنا أن ننال من كبير الحكماء، أيكون هذا جزاءه بعد الذي كان منه!!!؟ إنه وإن قتل البارحةَ وسفك الدماء فما هذا إلا ذنب يُحاسبُ عليه كبير الحكماء، فهو جنديٌ عليه طاعةُ أسياده، أليس كذلك أيها السادة... لم يَكُن بوسعه أن يَعترض على ما يأمره به أسياده وذلكَ يُحسبُ له ولا يُحسبُ عليه، لقد انخدعَ بكبير الحكماء وبقائدِ الحرس كما انخدع جُل أهل القريةِ، فإن كان ظالمًا فما بهذه القريةِ إلا ظالم.

دخل المستمعون في دوامةِ الحيرة تتقاذفهُم الآراء يمنةً ويُسرة، فكثر الهرجُ وسادَ الضجيج لتلاشيه "أراس" بصوتها: لتقِف جانبًا أيها الطيب فإنك واردها كصاحبيك.

هربت الدماء من وجنتي الطيب فشحبَ لونه وتابع غاضبًا: كيفَ تجرئين على مثل هذا القول، أيخاطبُ الحكماء هكذا، أينَ هيبةُ المعبد؟!

أنكر الناس على "أراس" قولها فارتفعت بعضُ الأصوات المؤنبةِ مُناصرةً للطيبِ إبراهيم كما استنفرَ الحكماء جميعهم لإسكات الفتاة وتنحيتها عن الساحة، وكأنها ثقبت سد النهر وجعلتهم عرضةً للغرق، كان الجنود يجولون كالنمل في جحره، مُنتظرين إشارةً من قائدهم الجديد الذي لاذ بالصمت، وأخذ يراقبُ مجريات الأمر بحذرٍ شديد، مُحاولًا أن يتجنبَ النظر إلى الجثتين الملقتين أمامه، وقد أحاطتهما دائرة من الدماء وتكاثفَ عليهما الذباب، وقف عباس وقد لملم حطامَ نفسه في أشد لحظاتِ ضعف الفتاة وقد وجدت أن جميع أهل القريةِ وحكمائها قد اجتمعوا عليها، وقف ليشد ساعدها بساعده ويزيدَ قوتها مما تبقى من قوته فقال بصوتٍ مبحوح وهو يُمسك بيدها ويبعدها إلى مأمنٍ خلفه: لا تكونوا ظلمةً، فلتسمعوا تتمةَ الأمر من أصحابه فإما أن تكونوا رجالًا وتنصروا من ترونه أهلًا للنصرة وإما أن تصمتوا وتتبعوا الكلام المُزخرف وتسلكوا سُبُلَ الأمان فلا تقومُ لكُم قائمةٌ بعد ذلك، فقاطعته "أراس" قائلةً بصوتٍ لين يُخفي لحنًا باكيًا: لقد راهنتُ على حمايتكُم لنا، أفتخذلوا ابنةً من كانَ يومًا خادمكُم؟! إن لم يَكُن فعلكُم المبتغى ردًا للجميل، ليكُن تكفيرًا للذنبِ إذًا.

وتابعَ عباس بعد أن رأى كلامه وقد استفزَ السامعين وحركَ فضولهم: ائتنا بمَن عِندك أيها الجزار.

انشق صَفُ الشبان الذين خلف الجزار فتح باب دُكانه فخرجت مِنه ثلاثة نسوة ومَشَيْنَ باتجاه الجمع والشبان يحفُّونهم من الجانبين، والجمعُ مندهش لما يرى، كانت وجوههن مألوفةً ومعروفةً لأهل القرية، فلم يتنكر الفرع لنظيره والجارُ لجاره، إنما اتقد الفضول في صدور الناظرين وراحت العيون تلقي للعيون الأسئلة، شقت النسوة طريقهن ووصلوا إلى جانبِ "أراس"، كانت الأولى ذاتَ طولٍ فارع تلفُ حول عنقها شريطةً بنفسجية، وأما الثانية فإن الجوع قد جال وجلس في جسدها فبانت عليها آثاره، فبدت كستينية وهي في العقدِ الرابع من عمرها، والثالثة ابنتها، إلا أن جمالها كان أقوى من أن يسمحَ للبؤس بالعبثِ به.

وما هي إلا لحظاتٍ لوصولهن جوار عباس وقد همّ ليقول ما عنده، حتى اقتحم الجنود صفوف الجمع كالثيران المستنفرة تغز قرونها في كُل ما يعترضها، فلجانب سيف كُل جندي كانت هناك هراوة، لم تجر العادة على استخدامها إلا أن الأمر قد خُطط له قبل وقوعه، فبعدَ إشارةٍ من الطيبِ إبراهيم ألقاها على قائدِ المجموعة وانتشرت بين الجنود كالنار في الهشيم بدأت الهراوات تمضي في طريقها إلى جباه الجمع وأجسادهم، كان "جورج" في المؤخرة، لم يشأ أن يقترب من قائدِ المجموعة الذي قتل ابنه إلا في لحظة انتقامه فخشي أن لا يتمالك نفسه فتنقلبُ الدائرة على جماعته ويحالفهُم الفشل،

إذ إنه وفي اليوم التالي لزيارة الطيب إبراهيم لـ"أراس" أتاه عباس ليخبره بوعدِ الطيب إبراهيم، وما وجدوه في مذكراتِ الحكيم المعزول إزاءه من وصفٍ بالخُبث والمكر، فقال الجزار وقد خرج من نوبة بكاءٍ هيستيرية بقدومِ عباس: ذلك وغدٌ نجس، مُنذُ اليومِ الأول الذي عُين به حكيمًا لم يتغير رأيي به، وما يُدرينا لعله قد حاك وخطط لكُل ما حصل بالخفاء، وإن لم يكُن كذلك فلماذا حال بين الحكماء القدامى والحكيمِ المعزول إذًا!!!

- لكننا الآن بحاجته...

- نعم نحنُ بحاجته، ولكن لنستعمله بدلًا من أن نستأمنه، أعرفُ عدة نساءٍ عَمِلن في حقله، وخرجن أذِلة بعد أن هتك أعراضهن، وملأ أفواههن بالخوف فلم يبُحن لأحدٍ بما جرى، لولا أن فتاةً كانت تتسول ما يَسدُ رمقها، وكنتُ على درايةٍ بأنها قد كانت تعمل في حقله، فأثار فضولي بقاؤها دون عمل، وعلمتُ بقرارةِ نفسي أصل الأمر وألححتُ عليها أيما إلحاح حتى انطلق لسانها وقص بلوْعَةٍ ما كان منه بحقها وعددٍ من نسوةِ القرية اللاتي لا سند لهن يتكئن عليه، فإن اقتنعن هؤلاء النسوة بقص الأمر على أهل القرية نلنا منه وتمكنا من رقبته، وذلك بعد أن نستعين بقوته للتمكُن من أمر "أوندال" وقائد الحرس.

مرت دقائق مُلئت بها الساحة بدماء الأهالي فهربت النسوة والأطفال وبقي شُبان القرية الأشداء بجانبِ "جورج" وجوقته، واستل الجنود سيوفهم ورموا الهراوات بعد أن أنهكوا الجمع ضربًا، ولم تجدِ سيوف الأهالي وسواطيرهم نفعا، فكان من نصيب كُل شابٍ ما يزيدُ عن أربعة جنود يلتفون حوله ويبرحونه ضربًا بعد أن يجردوه من سلاحه، وهُم كذلك

كالذئاب الساغبة كانت "أراس" تقف فاغرةً فاهها مندهشةً بالجنون الذي أصاب الطيب إبراهيم عند رؤيته للنسوة، تقِفُ مداريةً نِصف جسدها خلف عباس الذي كان يدفع عنه الأجساد المتعاركة كي لا يُداس تحت الأقدام، حدجها إبراهيم بنظرةٍ غاضبة بعدَ أن انتهى من عركِ أحد الشبان تحت قدميه، فأشار للجنود عليها وصاحبها، فدارت الدائرة عليهما وبعد لحظاتٍ قضينها تحت هراوات الجنود وأقدامهم مرت وكأنها سنون مُهلكة، فقدن الوعي والشعور بالألم، فأصبحن كأجسادِ الموتى لا يضيرهن ما يُفعل بهن.

15- المذكرة السابعة.

أخطّ هذه الصحيفة وقد بدأت النهاية تتجلى لي، لم يبق بيني وبينها سوى بضع خطوات، فإما أن تكون مخاض ولادةٍ جديدة لي ولقرى الجبل، أو أن ألقى بها حتفي، أخبرني الحكيم عارف أنه سيخرجُ للناس ويخبرهم بما جرى بعد أن يُلقي القبض على رئيس الحرس "سفيان" وسيده "أوندال"، ولكن قبل ذلك عليه أن يقف على أرضٍ صلبة لا تميلُ تحت أقدامه ويستندُ إلى جدارٍ قويم لا يخشى أن ينقض عليه من خلفه، ولن يكون ذلك إلا بجمع الرجال من حوله، وجمع الناس من قرى الجبل على "أوندال" أصبح ممكنًا لما يعانونه منه، ولكن الخوف من الخيانة أو بلوغ الخبر لـ"أوندال" قبل وضعه تحت سيف العدالة جعلني أرفض ذلك الخيار، فاعتمدنا أخيرًا على أن يَخرجَ الحكيم عارف إلى الجبل الشرقي فيستأجر الرجال ويعينه على ذلك وعودٌ يبذلها لهم على منحهم أمولًا توفر رغد العيش لهم

بعد الانقضاض على "أوندال"، لا أعلم حقيقةً إن كان المرتزقة يعرضون حياتهم للخطر واحتمال خسارتهم قائمًا بقوة، قد يَصعب الأمر عليه والأموال بين كفيه قليلة، كان بإمكان عارف أن يتزود بالمال من المعبد أو أن يستلف من أحد المرابين، ولكن خشيتهُ من أن يجذبَ الأنظار إليه منعته من ذلك، فقد عُرف عنه زهده في الحياة ورفضه لملذاتها، والرضا بما يبقيه على قيد الحياة دون زيادة أو نقصان فيكفي أن يتساءل أحدهم عن حاجته لهذا المبلغ الكبير من المال حتى تتسارع العيون خلفه وتكثر عليه الأقوال، وهذا ما لا نريده! أما عن مبرر خروجه فلديه من المبررات المقنعة ما يكفي ليخرج من القرية سالمًا هنيئا، فإن استطاع جمع الرجال والإتيان بهم سيرسل من يخبرني بقدومه قبل أن يصل مشارف القرية لأخرج وألتقيه فندخل القرية سويًا، ولم يبق لوصوله حسب ما أخمن سوى نهار وليلته، وضمن ما تحادثنا به في الرسائل المُتعاقبة أنه سَيُلبس الرجال ملابس الطلبة ويُخفي أسلحتهم، أما أنا سأكون في عربته حتى إذا ما وصلنا القرية اختبأت في إسطبل الخيول، وسترسلُ قبل وصولنا من يتأكد من وجود "أوندال" في المعبد، فإن لم يكن؛ ذهب هذا الطالبُ الذي ينقل بيننا الرسائل فأخبره بضرورةِ حضوره للمعبد لأمرٍ مستعجل، فبذلك نضمن ابتعاده عن حُراس القرية، فإذا ما وضعنا السيوف على عنقه وخرجنا للناس وصدحت أصواتنا بالحقيقة سل الرجال سيوفهم وحالوا بين الحرس وبيننا، ولن يَقبل أهلُ القرية بأن تقطع ألسنتنا وينتهي أمرنا قبل أن يعلموا أصل المسألة، فإن علم الناس والتفوا حولنا استطعنا أن نضيق الحبل على رأس "سفيان" ومن يعينه من الحرس، إن اجتمع الناس

مرةً فلا مفرق لهم سوى أنفسهم، وهذا هو بيتُ القصيد أن يُنصت الناس، فتجذبهم الحقيقة وتدفعهم لنصرتها، يومٌ واحد وربما أقل يفصلني عن الدخول إلى قريتي.

زارتني ابنتي منذ أيام، أصبحت شابة، مازال حزنها على موت أمها باديًا في ملامحها، هو الموت طائرٌ يحطُّ على كُل البقاع وينظرُ لكُل البشر فيختارُ منهم الأجمل والأنقى ليهاجروا سويًا مع الطيور وأدعية الخلق المُحلقة، لم أخبرها عن شيءٍ مما جرى وما سيجري، طوال تلك السنين بقي فمي مقفلًا يرتبُ الكلمات لتكون جاهزةً في موعد خروجها كعروسٍ تتزينُ لليلة زفافها فتمنع عريسها من رؤية زينتها قبل اللقاء، حتى إذا ما حان الوقت سلبت لبه لتبقى تلك اللحظات راسخةً في ذهنه إلى انتهاء العمر، أيقنتُ بعد سبع سنوات من العزلة أن العائلة مدفأة الروح، ومن فقد عائلته فقد دِفئه، ليس هناك ما هو أصعبُ على النفس البشرية من الوحدة إن دُفعت إليه عنوةً، أن تنام وتصحو دون أن تجد من تنظرُ لوجهه وإن كان غليظا شاحبًا، على المرءِ أن يحيط نفسه بأناسٍ يستطيع أن يبوح لهم، ويتعرى من صلابته أمامهم دون خوف من شيء، حتى وإن كانت العائلة من فردين اثنين، فإنها تكفي لتعطيك قوةً لمجابهة العالم، وتلك فتاتي لا ريب أنها تقاسي الشعور نفسه وها قد شارف وقتُ الدفء من جديد، أما الوحدة الهنيئة فهي التي يخطو إليها المرء بين الفينة والأخرى فتكون كالمصفاة لعقله وفصلا تثمر به أفكاره.

نهارٌ وليلة وأعود إلى مبنى الحكماء حيث الأصدقاء والطلبة أتوا من كُل صوبٍ ليبحروا في العلوم، ليس هنالك أعظم من

طالب العلم إلا باذله، سيُنشدُ الناس لحن التعظيم لمن شتموه وظلموه، سينحنون طلبًا للمغفرة والصفح وسأبذلها لهم دون حقدٍ وكراهيةٍ، يتوق المرءُ إلى العزلةِ مُنكرًا على الناس أعمالهم حتى إذا ما صار وحده وبلغ مُراده طلبت نفسه العودة واشتاقت إلى أسوأ ما يُمكن للمجتمع ارتكابه، ليس ازدواجيةً في الرأي والفكر إنما طبيعةُ الإنسان التي لا انفكاك له عنها؛ هي أنه خُلقَ في مُجتمعٍ وبين كثرة وما انعزاله إلا خروج عن هذه الطبيعةِ.

انتهتْ

الزرقاء – الأردن

2019/8/14